الفـــــلاح والمفلحـــون
في منهج القـــرآن

إعـــداد

أ.د/ حسن عبد الحميد حسن وتد

أستاذ مساعد في قسم التفسير وعلوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

" مقدمة "

الحمد لله الكريم بآلائه، العظيم بكبريائه، القادر فلا يمانع، القاهر فلا ينازع، والعزيز فلا يضام، والمنيع فلا يرام، والمليك الذي له الأقضية والأحكام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له سحانه لا تدركه الأوهام، ولا تبلغه الأفهام، ولا يشبه أحداً من الأنام، حي قيوم لا يموت ولا ينام.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله المرسل من قبل الملك العلام إلى جميع الأنام، برسالة وافية كافية شافية لكل الأسقام، صلى الله عليه وعلى آله الكرام، وصحابته الأعلام، والتابعين لهم وتابعيهم من أهل الصلاح والفلاح، ما انبلج الليل عن الصباح، ونادى المنادي حي على الفلاح، وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد..

فإن القرآن العظيم هو محور حياة المسلم، يستهدي به في كل شأن من شؤونه، وهو كما وصفه مترله سبحانه﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (١) ﴿ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ (٢)

والمسلم يعلم ــ يقينا ــ أن كتاب الله عز وجل هو روح الهداية في هذه الدنيا، وهو نقطة التحول في تاريخ البشرية، ولذا لابد أن يكون وثيق الصلة به، يعيش معه، ولا يسأم من ترديد النظر فيه، فهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والصراط المستقيم ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾(٣)

وقد جمع الله فيه من أصول الخير ومناهج الهدى ما يصلح الحياة، ويرسي في الأرض دعائم الطمأنينة والسلام في شتى جوانب الحياة.

إن المسلم يعلم أن للقرآن مهمة يؤديها للفرد والمجتمع فهو يرشد إلى نظام كامل ومنهج للحياة فريد.

وهو علاج حقيقي لأمراض الإنسان ومشكلاته، واستجابة صادقة لنوازعه وحاجاته، فلا فلاح ولا نجاح ولا صلاح إلا بخلق القرآن وهداه، ولا غرو فهو دستور الإسلام وأساسه الأول الذي يجمع

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٨٥.

(٢) سورة الإسراء الآية ٩.

(٣) سورة إبراهيم الآية ١.

ولا أدعي في بحثي هذا تفرداً أو تميزاً، فقد كنت فيه عالة على أسلافنا وعلمائنا وأئمتنا، وجهدي فيه وإن تضاعف فهو قليل، وإذا كان فيه من صواب وتوفيق فهو من الله تعالى وحده، وإليه يرجع الفضل كله، وله الحمد في الأولى والآخرة.

وإن كان فيه من خطأ أو سهو، أو تقصير أو نسيان فهو مني ومن الشيطان، وحسبي إخلاص النية وصلاح القصد، واستفراغ الوسع وبذل أقصى الجهد "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"[1] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيراً.

* * *

وكتبه
حسن عبد الحميد حسن وتد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
في كلية أصول الدين ـــ القاهرة

(١) سورة هود من الآية ٨٨.

تمهيد

معنى الفلاح في لغة العرب وفي الاستعمال القرآني:

قال الزمخشري في أساس البلاغة:

وهب الله لك الفلاح والفَلَح وهو: البقاء في الخير[2].

وفي اللسان: الفلح والفلاح: الفوز والنجاة والبقاء في النعيم والخير،

وقال الأزهري: وإنما قيل لأهل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد، وفلاح الدهر بقاؤه.

وقال ابن السكيت: الفلح والفلاح: البقاء.

ويقال لكل من أصاب خيراً أفلح.

والفلاح: الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال.

وفي التهذيب: في حديث الأذان: حي على الفلاح، يعني: هلم على بقاء الخير، وقيل: حي أي: عجل وأسرع، على الفلاح معناه: إلى الفوز بالبقاء الدائم، أي: هلموا إلى سبب البقاء في الجنة، والفوز بها وهو الصلاة في جماعة.

وأهل الفلح: الشق والقطع، فلح الشئ يفلحه فلحا أي: شقه، وقيل للفلاح

(٢) أساس البلاغة ص٣٤٧.

أحكامه، ويبين عقائده، ويحدد شريعته، ويوجه إلى آدابه وفضائله، فما أعظمه من كتاب، وما أجل أثره في حياة الفرد والمجتمع.

ومن هداية القرآن للفرد وإصلاحه للمجتمع حديثه عن الفلاح والمفلحين، وبيان أهم صفاتهم التي أهلتهم للفوز والفلاح، إشادة بهم، وإعلاء لمنزلتهم، وترغيبا في السير على منوالهم، وإشاعة للفضيلة وحثا عليها، وفي ذكر القرآن مقابلهم تنفير وتحذير، وتبشيع وتحقير.

وهذا البحث المتواضع محاولة في إلقاء الضوء على منهج القرآن في الحديث عن الفلاح والمفلحين.

وقد قسمته إلى مقدمة وتمهيد، وخمسة مطالب وخاتمة.

التمهيد: وقد ذكرت فيه معنى الفلاح في لغة القرآن الكريم.

المطلب الأول: وفيه الحديث عن ورود مادة الفلاح في القرآن.

المطلب الثاني: وتضمن الحديث عمن حقق الله تعالى لهم الفلاح.

المطلب الثالث: وهو عبارة عن حديث القرآن عن المرجو لهم الفلاح.

المطلب الرابع: وفيه بيان المقضي عليهم بعدم الفلاح.

المطلب الخامس: وهو مشتمل على حديث القرآن عن الفائزين وصفاتهم.

الخاتمة: وفيها أهم ما يستفاد من البحث.

هذا وقد آثرت تبسيط المحتوى، وتيسير العرض، والنأى عن التعقيد أو التقعر في الكلمة والتراكيب، ليتسنى للقارئ الكريم مواصلة القراءة وعدم الملل، فالتيسير على كل حال مقصود بداية ومطلوب غاية، لا سيما وأن هناك طائفة من الشباب تنفر من القديم لما فيه من صعوبة في اللغة، وعسر في فهم المصطلحات، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لافتقارهم من الأدوات التي تؤهلهم لفهم التراث، مما يخلق حاجزاً نفسيا وثقافيا، ويباعد الهوة ويعمق الشعور بالنفور والغربة.

لهذا وغيره حاولت أن تكون لغتي ليست بالقديمة وإن كانت منها، مرتبطة بمشاعر الشباب وحاجاتهم حتى نحمل الذي لا يقرأ على القراءة، ونربط القديم بالحديث، ونوثق العلاقة بالتراث، ولتقوى ـــ من قبل ومن بعد ـــ صلتنا بكتاب الله تعالى.

فلاح لأنه يفلح الأرض أي: يشقها، وحرفته: الفلاحة. اهـ ملخصا [١].

وقال ابن فارس: فلح: الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان.

أحدهما: يدل على الشق، والآخر: على فوز وبقاء.

فالأول: فلحت الأرض شققتها، والثاني: الفلاح البقاء والفوز.

ثم قال: والفلاح: السَّحور، قالوا: سمي فلاحا لأن الإنسان تبقى معه به قوته على الصوم. [٢]

هذا مجمل أقوال أهل اللغة في معنى الفلاح، وكلها تدور حول معنى البقاء والفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال، والظفر وإدراك البغية.

وهلم معي لنرى معنى الفلاح في مفهوم القرآن الكريم.

يقول الراغب: الفلاح: الظفر وإدراك البغية، وذلك ضربان: دنيوي، وأخروي فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز والأخروي: ويكون في أربعة أشياء.

أ ــ بقاء بلا فناء.

ب ــ غنى بلا فقر.

ج ــ عز بلا ذل.

د ــ علم بلا جهل.

ولذلك قيل: " لا عيش إلا عيش الآخرة " [٣].

وقال الله ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ.. ﴾ [٤].

ثم ذكر رحمه الله بعض الآيات التي فيها لفظ (تفلحون) [٥].

وذكر العلامة الألوسي كلام الراغب مع بعض تلخيص، وذلك في تفسيره سورة يوسف [٦].

---

(١) لسان العرب ــ مادة (فلح) ٣٤٥٨/٤ وما بعدها.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤٥٠/٤ باب الفاء واللام وما يثلثهما.

(٣) جزء من حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب ــ المناقب، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أصلح الأنصار والمهاجرة ح(٣٧٩٥). وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ــ باب ــ غزوة الأحزاب ح(١٨٠٤، ١٨٠٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٢/١٢.
أخرجه الترمذي في كتاب المناقب ــ باب ــ مناقب أبي موسى الأشعري ح (٣٨٥٦) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. سنن الترمذي ٥٠٦/٥.

(٤) العنكبوت من الآية ٦٤.

(٥) المفردات ص٣٩٩.

(٦) روح المعاني ٢١٣/١٢.

وقال ابن قتيبة : (المفلحون) من الفلاح، وأصله البقاء.

ثم استشهد بقول الشاعر:

أفلح بما شئت فقد يبلغ بالضـ ـ ـعف وقد يُخدع الأريب

أي : ابق بما شئت من كيس أو غفلة.

فكأنه قيل للمؤمنين: (مفلحون) لفوزهم بالبقاء في النعيم المقيم هذا هو الأصل، ثم قيل ذلك لكل من عقل وحزم وتكاملت فيه خلال الخير. اهـ [١].

وقال الدامغاني:

أفلح تأتي على وجهين :

فوجه بمعنى: سعد، ومثل له بأول سورة المؤمنون، وبقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ [٢] وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [٣]

والوجه الثاني: بمعنى فاز، فذلك قوله تعالى (إنه لا يفلح الظالمون) [٤] أي: لا يفوزون . اهـ [٥].

وقال السمين: والفلاح أصله: الشق، ومنه قوله: إن الحديد بالحديد يفلح.

ويعبر به عن الفوز والظفر بالبغية، وهو مقصود الآية [٦]، ويراد به البقاء، ثم استشهد ببعض الشعر على ذلك [٧].

وقال شيخ المفسرين: وتأويل قوله (وأولئك هم المفلحون) أي: أولئك هم المنجعون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب، والخلود في الجنان، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب، وذكر بسنده عن ابن عباس: أي الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا.

ثم قال: ومن الدلالة على أن أحد معاني الفلاح إدراك الطلبة والظفر بالحاجة قول لبيد بن ربيعة :

اعقلي إن كنت لما تعقلي
ولقد أفلح من كان عقل

يعني ظفر بحاجته وأصاب خيراً .

---

(١) غريب القرآن ص٩٣.

(٢) الأعلى الآية ١٤.

(٣) سورة الشمس الآية ٩.

(٤) سورة القصص الآية ٣٧ وهذه الجملة القرآنية لها نظائر في سورأخرى.

(٥) الوجوه والنظائر ص٨٥.

(٦) أي قوله تعالى (أو لائك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) البقرة الآية ٥.

(٧) انظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ١٠٢/١.

ثم قال: والفلاح أيضا: البقاء. وذكر من أشعار العرب ما يدل عليه [١].

وقال الشيخ الطاهر بن عاشور:

والفلاح: الفوز وصلاح الحال، فيكون في أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، والمراد به في اصطلاح الدين: الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة، والفعل منه أفلح أي : صار ذا فلاح، وإنما اشتق منه الفعل بواسطة الهمزة الدالة على الصيرورة لأنه لا يقع حدثا قائما بالذات بل هو جنس اهـ [٢].

وعبارة النيسابوري: المفلح: الفائز بالبغية [٣].

وقال القرطبي: والفَلْح أصله في اللغة: الشق والقطع، قال الشاعر:

إن الحديد بالحديد يُفْلَح.

أي: يشق. ثم ذكر نحو ما نقلته لك عن لسان العرب آنفا، وختم كلامه بقوله: ثم الفلاح في العرف: الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب[٤].

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١/٨٣.

(٢) التحرير والتنوير ١/٢٤٧.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان_ هامش الطبري ١/١٣٩.

(٤) تفسير القرطبي ١/١٨٢.

وفي المحرر الوجيز: الفلاح: الظفر بالبغية وإدراك الأمل، وقد وردت للعرب أشعار فيها الفلاح بمعنى البقاء، والبقاء يعمه إدراك الأمل والظفر بالبغية، إذ هو رأس ذلك وملاكه، وحكى الخليل الفلاح على المعنيين [٥].

والآن قد تقرر عندك أن كلام المفسرين في بيان معنى الفلاح هو عينه كلام اللغويين، والذي يدور كله ـ حسبما رأيت من أقوالهم ـ حول: الظفر بالمحبوب المطلوب والنجاة من المحذور المرهوب.

* * *

(٥) المحرر الوجيز ١/٨٦.

المطلب الأول

ورود مادة الفلاح في القرآن الكريم

القارئ لآيات القرآن الكريم يرى أن مادة الفلاح وردت فيه أربعين مرة، فجاءت فعلا سبعا وعشرين مرة على النحو الآتي:ـ

جاءت فعلا ماضيا (أفلح) أربع مرات

وجاءت فعلا مضارعا مرفوعا بالضمة الظاهرة (يفلح) تسع مرات.

وجاءت فعلا مضارعا متصلا به واو الجماعة (من الأفعال الخمسة) [١] مرفوعا بثبوت النون ثلاث عشرة مرة، مرتان بالياء (يفلحون) وإحدى عشرة بالتاء (تفلحون) .

وجاءت فعلا مضارعا منصوبا بحذف النون مرة واحدة (تفلحوا).

وجاءت الكلمة جمعا للمذكر السالم ثلاث عشرة مرة منها مرة واحدة مجرورة بالياء (المفلحين) واثنتا عشرة مرة مرفوعة بالواو (المفلحون).

وإليك الآيات :

قال تعالى : * ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ [٢].

• ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٣]

• ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. ﴾ سورة الأعلى الآية ١٤

• ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ سورة الشمس الآية ٩

• ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [٤].

• ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة البقرة من الآية ١٨٩

• ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢].

(١) الأفعال الخمسة هي: كل فعل مضارع اتصل به ألف الأثنين، أو ياء مخاطبة، أو واو جمع مبدوء بالتاء أو بالياء (يفعلون تفعلان_ تفعلين_ يفعلون تفعلون) وهذه الأفعال ترفع بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذفها. وانظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ص٤٥.

(٢) سورة طه الآية ٦٤.

(٣) المؤمنون : الآية ١.

(٤) سورة الكهف الآية ٦٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٠

• ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

• ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

• ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

• ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤) .

• ﴿ .... وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

• ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٦) .

• ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧) .

• ﴿ .... وَتُوبُواْ إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٨) .

• ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُواْ فِي الأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللّهِ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩) .

• ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٠) .

• ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠٠.
(٢) سورة المائدة الآية ٣٥.
(٣) سورة المائدة الآية ٩٠.
(٤) سورة المائدة الآية ١٠٠.
(٥) سورة الأعراف من الآية ٦٩.
(٦) سورة الأنفال الآية ٤٥.
(٧) سورة الحج الآية ٧٧.
(٨) سورة النور من الآية ٣١.
(٩) سورة الجمعة الآية ١٠.
(١٠) سورة الأنعا م الآية ٢١.
(١١) سورة الأنعام الآية ١٣٥.

• ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١) .

• ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٢) .

• ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣) .

• ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ (٤) .

• ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥) .

• ﴿.... وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٦) .

• ﴿... لَوْلَا أَن مَّنَّ اللّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٧) .

• ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ (٨) .

• ﴿ ... إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ (٩) .

• ﴿ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠) .

• ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١١) .

• ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٢)

• ﴿ ... فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٣) .

• ﴿ لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

---

(١) سورة يونس الآية ١٧.
(٢) سورة يونس الآية ٧٧.
(٣) سورة يوسف الآية ٢٣.
(٤) سورة طه الآية ٦٩.
(٥) سورة المؤمنون الآية ١١٧.
(٦) سورة القصص من الآية ٣٧.
(٧) سورة القصص من الآية ٨٢.
(٨) سورة يونس من الآية ٩٦.
(٩) سورة النحل من الآية ١١٦.
(١٠) سورة البقرة الآية ٥.
(١١) سورة آل عمران الآية ١٠٤.
(١٢) سورة الأعراف الآية ٨.
(١٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

وَأُولَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

• ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢) .

• ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣) .

• ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

• ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥) .

• ﴿..... أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦) .

• ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٧) .

• ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) .

• ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ (٩) .

* * *

(١) سورة التوبة الآية ٨٨.

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٢.

(٣) سورة النور الآية ٥١.

(٤) سورة الروم الآية ٣٨.

(٥) سورة لقمان الآية ٥.

(٦) سورة المجادلة من الآية ٢٢.

(٧) سورة الحشر الآية ٩.

(٨) سورة التغابن الآية ١٦.

(٩) سورة القصص الآية ٦٧.

المطلب الثاني

من حقق الله لهم الفلاح في القرآن الكريم :-

حكم الله تعالى بالفلاح المحقق لأصناف عديدين، قد تتشابه أحوالهم، وتتزاوج صفاتهم، وتتداخل خلالهم، إلا أنه يبقى لكل صنف ما يمتاز به عن غيره، أو قل: إن وعد الله لقوم عقيب وصفهم بوصف ما إنما هو لإبراز أهمية هذا الوصف والحث على امتثاله، وهو المعبر عنه عند المحققين من المفسرين بمقتضى الحال أو مراعاة المقام، أو ملاءمة السياق القرآني.

نعم الموعودون بالفلاح المقضي لهم به هم المؤمنون بالله حقا، ولكن يلفت القرآن أنظار المخاطبين إلى طائفة من الخصال التي تكون الشخصية الإيمانية المستحقة لوعد الله إعلاءً لهذه الخصال، وحضا على التخلق بها، وتنبيها على عدم التخلي عنها أو الإنسلاخ منها، إذ أنها تعتبر من ثمرات الإيمان، وبدونها يكون الإيمان عقيما لا جدوى منه ولا فائدة من ورائه.

لذا تراه يعقب بعد ذكر الخصلة الكريمة باستحقاق صاحبها للفلاح المؤكد والمحقق.

وهؤلاء بترتيبه لذكرهم في القرآن الكريم كما يلي :

(١) المتقون : ولما كانت التقوى جماع الفضائل — وهي وصية الله للأولين والآخرين، وهي كلمة جامعة تشمل فعل المأمورات وترك المحظورات — صرح القرآن هنا ببعض صفات المتقين فقال ربنا :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {٣} وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {٤} أُولَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٥}﴾ (١).

فكأن هذا الموضع يخص من صفات المتقين هاتيك الصفات إعلاءً لقدرها، وإبرازاً لفضلها وتنويها بشرفها إنها : —

(١) الإيمان بالغيب

(٢) إقامة الصلاة

(٣) الإنفاق من رزق الله

(٤) الإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل على من قبله من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. (٥) الإيقان بالآخرة.

(١) البقرة الآيات (٣: ٥).

إن المتقين الموصوفين بهاتيك الصفات أثنى الله تعالى عليهم بأنهم على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون، وهذا الثناء حكم مترتب على الأوصاف السابقة وهي موجبة له.

وبناء الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز، وتكريره وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل لإظهار قدرهم، والترغيب في اقتفاء أثرهم.

والمراد بالمفلحين أي: الكاملون في الفلاح ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم لا عدم الفلاح له رأساً.

وأترك القلم لينقل لك هذا التوجيه النفيس الذي سطره القاضي أبو السعود ــ طيب الله مرقده ــ إذ يقول :

تكرير اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم، وللتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضي نيل كل واحدة من تينك الأثرتين، وأن كلا منهما [1] كاف في تميزهم بها عمن عداهم، ويؤيده توسيط العاطف بين الجملتين ، بخلاف ما في قوله تعالى ﴿ أُولَـٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الأعراف الآية ١٧٩ .

فإن التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيههم بالبهائم فتكون الجملة الثانية مقررة للأولى، وأما الإفلاح الذي هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايراً للهدى ــ نتيجة له ــ وكان كل منهما في نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فُعل ما فُعل، و (هم) ضمير فصل يفصل الخبر عن الصفة، ويؤكد النسبة، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه، أو مبتدأ خبره المفلحون، والجملة خبر لأولئك، وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة، أو إشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم، هذا وفي بيان اختصاص المتقين بنيل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير إليه في تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب في اقتفاء أثرهم، والإرشاد إلى اقتداء سيرهم ما لا يخفى مكانه، والله ولي الهداية والتوفيق . اهـ [2] .

---

(١) يقصد ــ رحمه الله ــ كونهم على هدى من ربهم، وكونهم هم المفلحون.

(٢) إرشاد العقل السليم ١/٤٥ وما بعدها.

(٢) الدعاة إلى الخير :

قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1]

إن الآية الكريمة تبين مكانة الداعين إلى الخير، الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر وتقرر أنهم هم المفلحون.

والدعوة إلى الخير تعم بطبيعة الحال ما فيه صلاح ديني أو دنيوي.

فإن قلت: لم عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الدعوة إلى الخير وهما بمعنى واحد ؟؟ .

قلت: هذا من عطف الخاص على العام إيذانا بفضله.

قال الزمخشري: الدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص، فجئ بالعام ثم عطف عليه الخاص إيذانا بفضله.

ولكن صاحب الانتصاف لم يرتض هذا من صاحب الكشاف فعقب عليه قائلا :

عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء الخاص لا محالة، إذا اقتصر على بعض تناولات العام كقوله ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ.. ﴾ [2] وكقوله ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [3] وكقوله ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ [4] وشبه ذلك، لأن الاقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر يفيده تميزاً عن غيره من بقية المتناولات، وأما هذه الآية فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناوله إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور به، أو ترك منهى عنه لا يعدوا واحدا من هذين حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات.

فالأولى في ذلك أن يقال: فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاما ثم مفصلا، وفي تنبيه أن الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية. والله أعلم [5] .

إن من أهم سمات الأمة المسلمة أن أبناءها يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، إنها أمة تناشد الفضيلة وتحث عليها، وتنأى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

(٢) سورة البقرة من الآية ٩٨.

(٣) سورة الرحمن الآية ٦٨.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٣٨.

(٥) انظر الكشاف ــ والهامش ١/٢٠٧ وما بعدها.

عن الرذيلة وتحاربها، وهذا لا يتم إلا إذا نظر الفرد إلى غيره كأنه هو فأحب له ما يحب لنفسه، وكره له ما يكره لنفسه، ولا غرو فالغير إنما هو عضو من الجسد يألم الجسد لألمه ويفرح لفرحه.

ولكون هذه القضية في غاية الأهمية كان الداعون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم الحقيقون بوعد الله تعالى بتحقق الفلاح لهم.

وقد عقد الغزالي في الإحياء كتابا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفاد فيه وأجاد وذكر في مقدمته ما نصه :

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحق عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم .... الخ [1] .

إن الدعاة إلى الله العارفين العاملين لجديرون بوعد الله تعالى لهم بالفلاح، وهو سبحانه أعلم بمدى ما يعانون وبكنه ما به يجابهون، فوعدهم بالظفر بما يرغبون، وبالنجاة مما يرهبون، جزاء وفاقا لما تحملوا وبذلوا من جهدهم ووقتهم وعلمهم وما لهم وراحتهم ابتغاء مرضاة ربهم.

وهل يقال: أفلح الرجل إذا فاز بمرغوبه عفوا من غير تعب ولا معاناة ؟؟

اللهم لا. بل لابد في تحقيق المعنى اللغوي لهذه المادة من السعي إلى الرغبة والاجتهاد لإدراكها.

ولعلك ترى أن الآية تحتمل كون (من) في قوله (ولتكن منكم) بيانية أي: ولتكونوا أمة الخ، أو : تبعيضية، والمعنى على كليهما واضح.

وفي الآية تفصيل طويل لا يتسع المقام لذكره، وقد ذكر المفسرون من الذي يأمر وبم يأمر ومن الذي يؤمر، ومن الذي ينهى، وما حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما كيفيته إلخ [2] .

---

(1) إحياء علوم الدين ٣٠٢/٢.

(2) راجع نحو ذلك في القرطبي ٦٤/٤ وما بعدها، والكشاف ٢٠٨/١ وغيرهما.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله :

(وأولئك هم المفلحون) معطوفة على صفات (أمة) وهي التي تضمنتها جمل (يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) والتقدير : وهم مفلحون.

لأن الفلاح لما كان مسببا على تلك الصفات الثلاث جعل بمنزلة صفة لهم، ويجوز جعل جملة (وأولئك هم المفلحون) حالا من (أمة) والواو للحال، والمقصود بشارتهم بالفلاح الكامل إن فعلوا ذلك، وكان مقتضى الظاهر فصل هذه الجملة عما قبلها بدون عطف مثل جملة ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[1].

لكن هذه عطفت أو جاءت حالا لأن مضمونها جزاء عن الجمل التي قبلها فهي أجدر بأن تلحق بها، ومفاد هذه الجملة قصر صفة الفلاح عليهم، فهو إما قصر إضافي بالنسبة لمن لم يقم بذلك مع المقدرة عليه، وإما قصر أريد به المبالغة لعدم الاعتداد في هذا المقام بفلاح غيرهم، وهو معنى قصد الدلالة على معنى الكمال. اهـ [2] .

---

(1) سورة البقرة من الآية ٥.

(2) التحرير والتنوير ٤٢/٤.

(٣) المكثرون من عمل الصالحات :

قال تعالى ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [3] ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [4] .

إن مما يجب على المسلم الإيمان به (من السمعيات) الوزن والميزان، فهذا هو مقتضى صريح القرآن في آيات محكمات عديدات، وكذا قال علماء العقيدة من أهل السنة والجماعة. قال الشيخ/ إبراهيم اللقاني في الجوهرة :

ومثل هذا الوزن والميزان، فتوزن الكتب أو الأعيان.

ويقول الشيخ/ البيجوري في شرحه للجوهرة :

وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر، فيجب الإيمان به، ونمسك عن تعيين حقيقته، ولا يكون الوزن في حق كل أحد لأنه لا يكون للأنبياء والملائكة، ومن يدخل الجنة بغير حساب، وقد اختلف العلماء في الموزون: هل هو الكتب أو الأعيان ؟

---

(3) سورة الأعراف الآية ٨.

(4) سورة المؤمنون الآية ١٠٢.

فذهب جمهور المفسرين إلى أن الموزون الكتب التي قد اشتملت على أعمال العباد بدليل حديث البطاقة المعروف[1] ، وذهب بعضهم إلى أن الموزون الأعيان، وعلى كل حال ففائدة الوزن جعله علامة لأهل السعادة والشقاوة، وتعريف العباد ما لهم وما عليهم من الخير والشر، وإقامة الحجة عليهم. اهـ بتصرف وتلخيص[2].

وجمع الحافظ ابن كثير بين النصوص الواردة في هذا الباب والتي يدل بعضها على أن الذي يوزن هو الكتاب، وبعضها يدل على أن الأعمال هي التي توزن، وبعضها يدل على أن الفاعل هو الذي يوزن فقال: وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم[3].

وبالتالي فلا وجه أبداً لاعتراض المعتزلة على ذلك، ولا حجة لهم في إنكارهم كما أفاده ابن الجوزي في تفسيره[4].

وفي الإرشاد: والجمهور على أن صحائف الأعمال هي التي توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة، وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم، ويشهد عليهم الأنبياء، والملائكة، والأشهاد، كما يثبت في صحائفهم فيقرؤونها في موقف الحساب. اهـ[5]

(١) وهو ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عله وسلم:"إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً؟؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟؟ فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء" ، أخرجه الترمذي في السنن_كتاب الإيمان_ باب_ ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله حديث (٢٦٣٩) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب ٤٤٩/٤.

(٢) انظر تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص٢٢٤ ونحو ذلك في شرح العقيدة الطحاوية ص٣٤١.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢٠٢/٢.

(٤) زاد المسير ١٧٠/٣.

(٥) إرشاد العقل السليم ٤٧٥/٢ وبمثل ما قال القاضي أبوالسعود قال البيضاوي، وابن كثير، والألوسي، والطاهر بن عاشور، وغيرهم في تفاسيرهم.

إذن الوزن عمل يراد به تعرف مقادير الشئ بالميزان والقسطاس، والوزن في ذلك اليوم — الذي يسأل الله فيه الرسل والأمم، ويقص عليهم كل ما كان منهم — هو الحق الذي تعرف به حقائق الأمور، وما يستحقه كل أحد من ثواب أو عقاب، فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان الصحيح وكثرة الحسنات وفعل الخيرات والصالحات فأولئك هم المفلحون الفائزون بالنجاة من العذاب، ودخول الجنات لملاقاة ما أعد لهم من جزيل الثواب.

إن ترتيب تحقق الفلاح على ثقل الموازين بالأعمال الصالحة لهو إغراء عظيم، وحث إلهي كبير للمسلم على أن يحرص على فعل الخيرات وترك المنكرات المهلكات الموبقات المبددة للحسنات ليثقل يوم القيامة ميزانه فيتحقق له الفلاح في الدارين، ويوم القيامة يكون في عيشة راضية ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ.{٦} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ {٧}﴾[1].

وهكذا ترى إعلاء القرآن لتلك القيمة الغالية، والمنزلة السامية العالية التي ينبغي على العاقل أن يضعها نصب عينيه في كل أقواله وجميع أفعاله.

يقول الشيخ / الطاهر بن عاشور — رحمه الله :

والإتيان بالإشارة للتنبيه على أنهم إنما حصلوا الفلاح لأجل ثقل موازينهم، واختير اسم الإشارة البعيد تنبيها على البعد المعنوي الاعتباري، وضمير الفصل لقصد الانحصار، أي: هم الذين انحصر فيهم تحقق المفلحين، أي إن علمت جماعة تعرف بالمفلحين فهم هم[2].

(٤) المؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم المتبعون دينه وشرعه : —

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ

(١) سورة القارعة الآيتان ٦: ٧.

(٢) التحرير والتنوير ٣١/٨.

الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{١٥٧}﴾ [١].

والآية تقرر أن الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ووقروه وعظموه ونصروه، وجعلوه في المنزلة التي تليق به، (واتبعوا النور) القرآن الذي يخرج الإنسان من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان والهدى، (أولئك) الموصوفون بهاتيك الصفات، البالغون في تحقيقها والتحقق بها أعلى الدرجات (هم) دون غيرهم (المفلحون) الفائزون بالمطلوب في الدارين.

إن قوله سبحانه (فالذين آمنوا به) بيان لكيفية اتباعه صلى الله عليه وسلم، وبيان لعلو رتبة المتبعين، وقوله (أولئك هم المفلحون) إشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للإشعار بعليتها للحكم.

وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم، وسمو طبقتهم في الفضل والشرف، أو : أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة هم المفلحون الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب . كما أفاده أبو السعود [٢] .

وإذن فالآية الكريمة لما بينت ترتب الحكم بالفلاح لهؤلاء على تحقق هذه الصفات إنما تحض على امتثالها ووجوب التحلي بها والتخلي عن كل ما ينافيها.

إنها منظومة إيمانية متكاملة لابد من اجتماعها من غير اجتزاء أو انتقاء، أي: لابد من إيمان صادق صحيح بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكذا لابد من توقيره وإجلاله، وتعظيمه ونصرته ونصرة دينه بكل صور النصر من حسن فقه وحسن امتثال واتباع وحسن إبلاغ ودفاع، واتباع لكل ما جاء به النبي من عند ربه حينئذ يكون الفلاح الذي لا خسران بعده والفوز الذي لا هلاك معه.

فائدة : فإن قيل: كيف يمكن حمل النور هنا على القرآن، والقرآن إنما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لا معه، بل أنزل مع جبريل عليه السلام ؟

قلت: معناه: أنزل مع نبوته، لأن نبوته ظهرت مع ظهور القرآن، أو : ظهر القرآن مع ظهور نبوته.

وبنحو ذلك قال الخطيب الشربيني[٣] والقاسمي في تفسيره[٤] .

---

(١) الأعراف الآية ١٥٧.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/٣٩.

(٣) تفسير الخطيب ٢/٦٠٢.

(٤) محاسن التأويل ٥/١٩٧.

وكذا القاضي أبو السعود ثم قال: ويجوز أن يكون (معه) متعلقا بـ (اتبعوا)، أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه عليه الصلاة والسلام بالعمل بسنته وبما أمر به أو نهى عنه، أو: اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه. اهـ [١] .

قال الثعلبي: وهذه الآية الكريمة معلمة بشرف هذه الأمة على العموم في كل من آمن بالله تعالى، وأقر برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم هم يتفاوتون بعد في الشرف بحسب تفاوتهم في حقيقة الاتباعية للنبي صلى الله عليه وسلم.اهـ [٢]

(٥) المجاهدون والغزاة :.

قال تعالى : ﴿لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ التوبة ٨٨.

إن هذه الآية الكريمة وردت في سياق كشف النقاب عن سوءات المنافقين وفضح شأنهم في تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعللهم بالأعذار الكاذبة والأقاويل الهابطة، وركوبهم متن الحيل الفاسدة.

وقفى على ذلك بأن أبان للجميع أن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، وكانوا معه في كل المهام مجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، قائمين بالواجب خير قيام عملا بداعي الإيمان وأمر الله تعالى إياهم في القرآن .

أولئك المجاهدون في سبيل الله بكل ما يملكون لهم الخيرات التي هي ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر، ومحو كلمة الكفر، وإعلاء كلمة التوحيد، وإقامة صرح الحق، ورفع راية العدل دون المنافقين الجبناء الذين ألفوا الذلة والهوان، ولم يكونوا أهلا للقيام بهذا الشرف الذي هم عنه بمعزل، (وأولئك) أي أهل الجهاد في سبيل الله (هم المفلحون) الفائزون بسعادة الدارين وكرامة الحياتين.

إن الآية تبرز فضل هؤلاء الذين غلب حب الله في قلوبهم على حب الأنفس والأموال والأولاد، وتعدهم بما هم خليقون به.

نعم فإن تخلف عن نصرة دين الله منافق جبان فإن هناك من أبناء الإيمان شجعان لا يخافون في الله لومة لائم، وليسوا عبيداً لمال أو نفس أو ولد أو دنيا أو أي شئ لأن حب الله وابتغاء مرضاته هو المهيمن على كل ما عداه.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/٣٩.

(٢) تفسير الثعالبي ٣/٨٣.

ألا فليحذر المتقاعسون عن نصرة دين الله، فإن التصريح بوصف الناصرين لدينه مع النبي عليه الصلاة والسلام بقوله (آمنوا معه) إيذان بأن غيرهم ليسوا من الإيمان بالله في شئ، وإن زعموا أنهم قد أفلحوا بتخلفهم عن الجهاد، فسلموا وسلمت لهم أموالهم فإنهم واهمون، لأنهم في الحقيقة هم الخاسرون، أما المفلحون حقا فهم المجاهدون فأين الثرى من الثريا ؟ !!! .

أين من حاز على بعض الحظوظ الفانية ممن حاز على فضل الله في الباقية. !!!

يقول أبو السعود :

وتكرير اسم الإشارة تنويه بشأنهم ، ورب[1] لمكانهم، وقوله (أعد الله لهم جنات...)استئناف لبيان كونهم مفلحين ، أي: هيأ لهم في الآخرة....الخ[2] .

(٦) الصالحون المصلحون :-

وهم المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات السبع المذكورون في صدر سورة (المؤمنون) .

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{١} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ {٢} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ {٣} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ {٤} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ {٥} إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ {٦} فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ {٧} وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ {٨} وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ {٩} أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ {١٠} الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{١١} ﴾ سورة المؤمنون الآيات١: ١١.

في المحرر الوجيز: أخبر الله عن فلاح المؤمنين، وأنهم نالوا البغية، وأحرزوا البقاء الدائم [3] .

وفي الإرشاد: الفلاح: الفوز بالمرام، والنجاة من المكروه، وقيل: البقاء في الخير، والإفلاح: الدخول في ذلك كالإبشار الذي هو الدخول في البشارة، ثم قال :

وكلمة (قد) ها هنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل، لا متوقع

(١) أي: إطلاع لغيرهم على شرفهم، أو: إعلاء لمكانهم. كما أفاده ابن منظور في اللسان مادة: ربأ ١٥٤٥/٣.

(٢) تفسير أبي السعود ١٧٨/٣.

(٣) المحرر الوجيز ١٣٦/٤.

الإخبار به ضرورة أن المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح لهم لا الإخبار بذلك.

فالمعنى: قد فازوا بكل خير، ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقعا من حالهم، فإن إيمانهم وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعي الفلاح بموجب الوعد الكريم، خلا أنه إن أريد بالإفلاح حقيقة الدخول في الفلاح الذي لا يتحقق إلا في الآخرة ، فالإخبار به على صيغة الماضي للدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت، وإن أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضي في محلها.

ثم قال عليه سحائب الرحمة والرضوان :

(أولئك هم الوارثون) إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات، وإيثارها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم، ونزولهم منزلة المشار إليه حسا، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (هم الوارثون) أي: الأحقاء بأن يُسَمَّوا وارثا دون من عداهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها اهـ [1] .

لقد تكفل مطلع السورة الكريمة بالإشادة بجملة من الصفات العظيمة والخصال القويمة، والخلال الحميدة، وقضى بتحقق الفلاح لمن اجتمعن فيه، وفي ذلك من الصيانة للفرد ما فيه، وفيه من إشاعة الطهر الحسي والمعنوي، الجسدي والنفسي في المجتمع المؤمن ما فيه، حتى إنه ليمكننا أن نقول :

إن هذه الآيات الكريمة لتسهم بنصيب كبير في إبراز معالم الطريق، ورسم الإطار السوي للمسلم النقي التقي، إنها تحدد معالم الشخصية الإسلامية التي يريدها الله تعالى، إنها معلم تربوي من المعالم التربوية الثرية في كتاب رب البرية، إنها وثيقة إلهية للمؤمن إنها وعد من الذي لا يخلف الميعاد، إنها إعلان على العالمين في شتى البقاع والأصقاع عن فلاح أهل الإيمان المتصفين بتلك الصفات.

إنها تعلن في وضوح لا لبس فيه أن هؤلاء مكتوب لهم الخير والنصر، والسعادة والتوفيق، ومكتوب لهم الفوز والنجاة والثواب والرضوان، إنها تقرر بمفهوم النص ما يلي : —

غير المؤمن لا فلاح له .

وغير المصلي الخاشع لا فلاح له .

ومدمن اللغو إن لم يتب فلا فلاح له.

(١) إرشاد العقل السليم ٤٠١/٤، وما بعدها..

ومانع الزكاة لا فلاح له .

وغير الحافظ لفرجه لا فلاح له .

وخائن الأمانة لا فلاح له .

وناقض العهد لا فلاح له .

نعم هؤلاء لا فلاح لهم ما داموا واقعين في أوحال تلك الرذائل.

ألست معي في أن السورة وهي تقرر الفلاح للمؤمنين، وتعرض أهم صفاتهم التي بها يكونون خليقين بهذا الفوز الأعظم إنما تعلي شأن هاتيك الصفات، كما أنها تعلي في الوقت ذاته شأن المتصفين بها، وكذا تحط من قدر معدومي تلك الفضائل والقيم.

يقول صاحب الظلال :

الوعد الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين وعد الله لا يخلف الله وعده، وقرار الله لا يملك أحد رده الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، فلاح الفرد المؤمن، وفلاح الجماعة المؤمنة، الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه، ويجد مصداقه في واقع حياته، والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين. اهـ [1]

(٧) أهل السمع والطاعة والتسليم المطلق للرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة النور الآية ٥١.

المتأمل في سياق هذه الآية الكريمة في سورة النور يرى أنها ذكرت عقيب ذكر جملة من قبائح المنافقين، ومن جملة قبائحهم أنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فإذا كان الحق عليهم فهم معرضون عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الحق الذي حكم به ، أما إذا كان الحق لهم فإنهم يأتون منقادين مستسلمين لعلمهم بأنه صلى الله عليه وسلم يحكم لهم .

وجريا على عادة القرآن الكريم في إتباع ذكر الباطل وأهله الحق وأهله ــ أو العكس حسب مقتضى السياق ــ والتنبيه على ما ينبغي أن يكون بعد إنكاره لما لا ينبغي أن يكون، أقول: لما كان الأمر كذلك جاءت آيتنا الكريمة تعلي شأن المؤمنين، ولا سيما بتحليهم بهذه الصفة العظيمة وهي (السمع والطاعة) فهذا

(١) تفسير الظلال ٤/٢٤٥٣.

مقتضى الإيمان، وإلا فهل يعقل أو يقبل ادعاء الإيمان بالله تعالى ورفض حكمه، وادعاء الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ورد أمره وعدم الاستجابة لقـــوله ؟ ؟ !!.

ألا فليعلم من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك، ولا يقف الإيمان أبداً عند مجرد النطق باللسان دون التحقق به، ومن وقف عند مجرد الادعاء والنطق باللسان دون تحقق للمدلول فإن أفعاله تناقض أقواله وهذا عين النفاق، أما المؤمن الصادق فإن فعله يواطئ قوله، وسلوكه ثمرة إيمانه.

ألا فليعلم أهل التدين المصلحي وأرباب الالتزام المنفعي بأنهم ليسوا على شئ، وهم في الحقيقة أهل التواء، وعباد أهواء، إنهم لا يقتربون من شرع الله إلا إذا كانت لهم منفعة عاجلة، وبدت لهم مصلحة راجحة، وإلا فلا .

إن من في قلبه مرض حينما لم تبد له مصلحة فإنه يتعلل بالأعذار الكاذبة، والأيمان الباطلة ولديه قائمة طويلة بالمبررات الواهية.

يا قوم إن الرضى بحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هو دليل الإيمان الحق، بل هو المظهر الذي ينبئ عن تمكن الإيمان في القلب، ثم هو الأدب الواجب مع الحق سبحانه ومع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يرفض أحد حكم الله وحكم رسوله إلا سئ الأدب بل عديمه أما المؤمنون بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم حقا في غاية الأدب مع الله عز وجل ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، إنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فلا يمكن أن يقولوا إلا (سمعنا وأطعنا) بلا تردد، ولا جدال، ولا التواء ولا انحراف، ولا تباطؤ ولا تثاقل، ليقينهم الكامل بأن شرع الله تعالى فيه كل خير لهم، وأن أتباعه هم أهل السعادة في الدارين، والإعراض عنه هو الشقاء في الحياتين.

لذا حكم الله لهم بالفلاح، ولم لا وهم الذين استقاموا على منهج الله، واطمأنوا لحكم الله ورسوله، وسمعوا وأطاعوا، ولبوا وتأدبوا وانصاعوا، إن قول الله تعالى عنهم (سمعنا وأطعنا) تلخيص لحالهم، وبيان لمنتهى إذعانهم، وليس المراد كما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور.

خصوص هذين اللفظين، بل المراد: لفظهما أو مُرَادِ فُهما للتسامح في مفعول فعل القول أن لا يحكي بلفظة كما هو مشهور، وإنما خص هذان اللفظان بالذكر هنا من أجل أنهما كلمة مشهورة تقال في مثل هذه الحالة، وهي مما جرى المثل به، كما يقال أيضا: سـمع وطاعة ـ بالرفع ـ ، وسمعا وطاعة ـ بالنصب . اهـ [1].

إن من ألف أن يقول (سمعنا وأطعنا) صادقا هو المفلح في الدنيا باتباعه دين الله وشرعه فهو سبيل السعادة الحقة، وهو المفلح في الآخرة لنجاته من النار ودخوله الجنة وتمتعه بما أعد له فيها، وهل هناك فلاح بعد ذلك ؟ !!!

ورحم الله صاحب الظلال حين قال:

وعد الله ولن يخلف الله وعده أنهم للفوز أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم، فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه للبشرية عن علم وحكمة وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة. اهـ [2].

ويقول القاضي أبو السعود رحمه الله تعالى :

(وأولئك) إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل (هم المفلحون) أي: هم الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل محذور. اهـ [3]

القارئ الكريم : تأمل معي هداني الله وإياك إلى فهم أسرار كلامه أن الله تعالى ها هنا رتب الفلاح على هذا النوع من الطاعة والانقياد، حضا للمؤمن على التخلق بذلك في كل أحواله وجميع شؤونه، وقد جاء ذلك مطرزاً بلون من ألوان البلاغة له وقعه في النفوس، وأثره في القلوب، ومداه في التربية والتهذيب، وأعني به المقابلة بين حسن أدب المؤمنين وسوء أدب المنافقين الذين يدعون الإيمان وما هم بمؤمنين.

قال صاحب التحرير: وجئ في وصف المؤمنين بالفلاح بمثل التركيب الذي وصف به المنافقون بالظلم بصيغة

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٧٥.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٥٢٧.

(٣) إرشاد العقل السليم ٤/٤٧٦.

القصر المؤكد ليكون الثناء على المؤمنين ضداً لمذمة المنافقين تاما [1].

(٨) المعنيون بحقوق القربى:

قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة الروم الآية ٣٨.

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته، أو الخطاب للذي بسط الله له رزقه حسبما أشارت الآية السابقة، ولذا عطف الله هذه الآية على سابقتها بالفاء. والتقدير:

فإن بسط الله له رزقه اعلم أن الله تعالى يحب الإحسان إلى ذوي القربى ـ كل بحسب حاله ـ والمساكين وأبناء السبيل، فإن الله تعالى إذا بسط الرزق فلا ينقصه الإنفاق ، وإذا قدره فلا يزده الإمساك.

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس طراً إنها تتقلب

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هي تذهب

إن الإيتاء للمنصوص عليهم غير عظيم لمن كان ينفق به وجه الله تعالى، وأولئك المعطون عن طيب خاطر، وإخلاص نية، وثقة فيما عند الله، ويقينا بموعود الله هم المفلحون الفائزون في الدنيا بطهارة نفوسهم، وطهارة أموالهم وزيادتها، وصيانة أنفسهم وأموالهم من حقد الحاقدين، ونظر الناظرين، وهم المفلحون في الآخرة بالأمن من المرهوب وحصول المرغوب.

ولم لا يحكم لهم بالفلاح وهم قوم لم يتمكن المال بسطوته وإغرائه من قلوبهم، ولم يستعبد ويستذل نفوسهم، بل أحسنوا توظيفه في مرضاة ربهم، إنهم علموا أن المال من عطاء الله لهم، وأنهم فيه خلفاء وعليه أمناء فبذلوه في مرضاة ربهم، بذلوا الفاني حبا في الباقي، أنفقوا اليسير طمعا في الكثير فكانوا مفلحين بشهادة الله الحق جل شأنه.

فإن قلت: لم لم يذكر هنا بقية الأصناف واقتصر على من ذكر ؟

قلت: لأن المراد بالإيتاء هنا على ما رجحه المحققون هو: الصلة والصدقة وسائر المواساة، والسورة مكية، والزكاة إنما فرضت في المدنية، والقول باستثناء هذه الآية بأنها مدنية يحتاج إلى نقل

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٧٥.

صحيح، وسبق النزول على الحكم بعيد، فلهذا كله لم تذكر بقية الأصناف [١].

فائدة : هل النفقة واجبة لكل ذي رحم محرم ذكراً كان أو أنثى فقيراً أو عاجزاً عن الكسب على اعتبار أن قوله (فآت)للأمر،وهو في الظاهر للوجوب ؟

والحقيقة أن هذه مسألة فقهية خلافية .

فذهب الأحناف إلى القول بالوجوب، وقال الشافعية: لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين.

فإن قلت: ما المراد بالحق إذن ؟؟

قلت: المراد بالحق المصرح به في ذي القربى صلة الرحم بأنواعها فصلة الرحم واجبة. والمراد بالحق في جانب المسكين وابن السبيل الصدقة.

وفي الحكم بفلاح هؤلاء تعريض بغيرهم ممن ليس على شاكلتهم كما لا يخفى، فمن لم يقم بحق هؤلاء فليس من المفلحين، ومن آتى للرياء والفخر فليس من المفلحين.

وذهب البعض إلى أن هذه الآية نسخت بآيات المواريث.

والراجح أنها لم تنسخ بل للقريب حق في البر على كل حال، وللفقير والمسكين حق الصدقة.

قال الطاهر بن عاشور :

وكانت الصدقة قبل الهجرة واجبة على الجملة موكولة إلى حرص المؤمن، وقد أطلق عليها اسم الزكاة في آيات مكية كثيرة، وقرنت بالصلاة، فالمراد بها في تلك الآيات الصدقة الواجبة وكانت غير مضبوطة بنصيب ثم ضبطت بأصناف ونصب ومقادير .. اهـ [٢].

(٩) المحسنون :.

قال تعالى ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ {٣} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {٤} أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٥}﴾ [٣].

سمى الله الموصوفين بهذه الصفات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، واليقين بالآخرة سماهم محسنين، وقضى لهم بالهداية، وحكم لهم بالفلاح؛ وقد سماهم هنالك في سورة البقرة متقين، وكل موضع أليق بلفظه الذي ورد فيه.

---

(١) بتصرف وتلخيص من روح المعاني ٤٤/٢١.

(٢) التحرير والتنوير ١٠٣/٢١.

(٣) سورة لقمان الآيات ٣: ٥.

فالمحسنون هم الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويوقنون بالآخرة.

وجزاؤهم ومكانتهم أنهم على هدى من ربهم، وتلك لعمر الحق شهادة غالية، وأولئك هم المفلحون وتلك وأيم الله منزلة عالية.

نعم إن المحسن هو الذي يقيم الصلاة إقامة تحقق ما شرعت من أجله، وهو الذي يهتز قلبه لغيره، فتمتد يده بالعطاء، وهو الذي بعد يخشى الله فيراقبه في كل ما يأتي ويذر، فيهرع إلى الخير وينأى عن الشر طمعا في رضا الله ورحمته، وخوفا من حساب عسير يوم يقوم الأشهاد لرب العالمين، وجاء ضمير الفصل في الإيقان بالآخرة (وهم بالآخرة هم يوقنون) لأن الإيقان باليوم الآخر هو الينبوع الثري الذي تتفجر منه ينابيع الخير في كل اتجاه، حتى يستجمع الشخص كل ملامح المثالية في الحياة، فمن يوقن بأنه سيبعث ويحاسب على كل ما قدم من خير أو شر، لن يترك خيراً أو يقترف إثما، وهذان جماع الإحسان الذي يستأهل صاحبه أن يشهد له خالقه بأنه على هدى، وأنه هو المفلح، ومن ثم نصت آية مستقلة بأنهم على هدى من ربهم وأنهم هم المفلحون وذلك بأسلوب القصر البلاغي للترغيب في السير على منوالهم.

والإحسان ــ كما قال الراغب ــ : يقال على وجهين :

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

الثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علما حسنا، أو عمل عملا حسنا.

والإحسان: أعم من الإنعام، والإحسان: فوق العدل، وذاك أن العدل هو: أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع [١].

إن إحسان الأعمال، والعبادات أي: الإتيان بها على الوجه اللائق بحسب الكيف، كما أشار إليه المعصوم صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل الشهير " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " [٢].

---

(١) المفردات ص١١٨.

(٢) حديث جبريل بتمامه أخرجه مسلم في صحيحه _باب_ الإيمان والإسلام والإحسان حديث (٨) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٠/١.

أو بحسب الكم كالإتيان بالنوافل، والزيادة من جنس ما افترض الله تعالى عليه.

لقد بين الله تعالى في صدر سورة لقمان بعض مجالات الإحسان، وأعظمها مراعاة حق الله تعالى الممثل له بالصلاة التي هي عماد الدين، وحق الخلق الممثل له بإيتاء الزكاة للتواصل والتكافل، وهم من قبل ومن بعد بالآخرة يوقنون.

قال العلامة الألوسي ما ملخصه :

إن أريد بالمحسنين معنى خاصا أي: المحسنين في الأمور العظيمة في الدين. كان قوله (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) تفسيراً للمحسنين. وإن أريد بالمحسنين المعنى العام أي: في جميع الأعمال كان المذكور بعده بمنزلة الجميع[1] .

أي: من باب ذكر البعض وإرادة الكل، أو الاكتفاء بذكر أشهر أوصافهم، لأنهم إن حققوا الإحسان في هاته الثلاث فإنه سيحققون الإحسان فى غيرها من باب أولى، أو: الأولى لمراعاة حق الخالق جل شأنه، والثانية لمراعاة حق المخلوق، والثالثة إشارة إلى قوة وثبات وبقاء العقيدة الصحيحة. والله أعلم.

ثم أثنى عليهم ربهم فبين أنهم (على هدى من ربهم) ، ثم قرر سبحانه أنهم هم المفلحون، فمن هدى فقد أفلح لأنه سائر على النور، واصل إلى الغاية ناج من الضلالة.

القارئ الكريم. لا أريد أن أطيل عليك هنا، فأنت على ذكر بما ذكرناه لك هنالك في موضع سورة البقرة، إلا أني أود أن أخبرك بأن هذا الموضع آثر مدحهم بوصف الإحسان، أما في سورة البقرة فلما كانت هي السورة الثانية في الترتيب المصحفي وهي أطول سورة على الإطلاق فقد وصفهم الله في أولها بالمتقين، والتقوى جماع الفضائل ووصية الله للأولين والآخرين وبالتالي فقد ذكر لهم أوصافا أكثر مما هنا.

إن آيتنا تعلى مقام الإحسان وتلفت الأنظار إليه، ألا وإن فرداً يتصف بالإحسان في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهو موقن بوعد الله لهو فرد إيجابي نافع لنفسه ولمجتمعه، ألا وإن مجتمعا يتألف من أفراد هذا وصفهم لهو مجتمع نقي تقي صالح.

---

(1) روح المعاني ٦٦/٢١ .

لذا كان تحلية أعناقهم، وتتويج جباههم بتاج الفلاح من ربهم بعد وصفهم بأنهم على هدى هو الأليق بهم تثمينا لأعمالهم وتقوية لعزائمهم لبقاء استمساكهم بهذا المنهج، وكذا حثا لغيرهم على السير في ركابهم واحتذاء صنيعهم.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ..

إن التشبه بالرجال فلاح

(١٠) حزب الله :.

قال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٢٢} ﴾ سورة المجادلة الآية ٢٢.

ختم الله تعالى سورة المجادلة بهذه الآية العظيمة المتضمنة لبعض خصال الإيمان، وصفات المؤمنين، والمنبئة عن علو رتبتهم، وشرف مكانتهم وعظيم قدرهم، ومقصود الآية كما يقول صاحب التفسير الوسيط:

"النهي عن موالاة المنافقين وأشباههم، وإنما جاءت بصيغة الخبر لأنه أقوى وآكد في التنفير عن موالاة أعداء الله، إذ الإتيان بصيغة الخبر يشعر بأن القوم قد امتثلوا لهذا النهى ... "[1].

وإخالك على علم بأن النهي عن الموالاة لا يتنافى مع الأمر بالمصاحبة بالمعروف المذكور في آية لقمان ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً.... ﴾ الآية [2]

إذ أن المصاحبة بالمعروف أعم من الموادة كما يقول العلامة الشنقيطي رحمه الله : ــ

لأن الإنسان يمكنه إسداء المعروف لمن يوده ومن لا يوده، والنهى عن الأخص لا يستلزم النهى عن الأعم، فكان الله حذر من المودة المشعرة بالمحبة والموالاة بالباطن لجميع الكفار، وفعل المعروف لا يستلزم المودة، لأن المودة من أفعال القلوب لا من أفعال الجوارح...[3]

---

(1) التفسير الوسيط ٣٥٢/١٤.

(2) سورة لقمان الآية ١٥ .

(3) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص١٨٢.

لقد أثنى الله تعالى على هذا الصنف من الناس بأنهم لا يوادون أعداء الله مهما كانوا، أولئك هم الذين كتب الله تعالى الإيمان في قلوبهم، فاختلط بها واختلطت به، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه، (وأيدهم بروح منه) أي: ثبتهم وقواهم بنور من عنده تعالى، فصاروا بسبب ذلك أشداء على الكفار رحماء بينهم، فلا انفكاك لذلك عنهم في وقت من الأوقات.

يقول الخطيب الشربيني رحمه الله :

لا تجد شيئا أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله تعالى، ومعاداة أعدائه، لا بل هو عين الإخلاص، ومن جنح إلى منحرف عن دينه، أو داهن مبتدعا في عقيدته نزع الله تعالى نور التوحيد من قلبه[1].

نعم لا تجد قوما يجمعون بين الإيمان ــ الحق ــ بالله واليوم الآخر، وبين موادة أعداء الله ورسوله، لأن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين، إذ من كان مؤمنا بالله حقا فإنه لا يوالي كافراً، فهل ترى أحداً يصدق في حبه لله ثم يوالي عدوه؟!!!

لا لابد أن يقصر المؤمن حبه على الله ورسوله فقط، ثم يأتي حبه لإخوانه المؤمنين من باطن حبه لله تعالى.

حكى الألوسي عن الكواشي عن سهل أنه قال:

من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس إلى مبتدع، ولا يجالسه، ولا يؤاكله، ولا يشاربه، ولا يصاحبه، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء، ومن داهن مبتدعا سلبه الله تعالى حلاوة السنن، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عز الدنيا أو عرضا منها أذله الله تعالى بذلك العز، وأفقره بذلك الغني، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه، ومن لم يصدق فليجرب . اهـ[2] .

إن الآية الكريمة تصرح في جلاء بوجوب ترك الموادة لمن حارب الله ورسوله، مهما كانت درجة قرابته، وفي ذكر من ذكرهم الآية دليل على النهى عن غيرهم من باب أولى.

وقدم الآباء لأنهم أول من تجب طاعتهم، وثنى بالأبناء لأنهم ألصق الناس بهم، وثلث بالإخوان لأنهم الناصرون لهم،

(١) تفسير الخطيب ٤/٢٥٠.

(٢) روح المعاني ٢٨ / ٣٥ .

وختم بالعشيرة لأن التناصر بها يأتي في غاية المطاف.

ثناء الله عليهم ووعده المحقق لهم :

١ــ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان.

٢ــ وأيدهم بروح منه.

٣ــ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

٤ــ رضى الله عنهم ورضوا عنه.

٥ــ أولئك حزب الله.

٦ــ إن حزب الله هم المفلحون.

قد يقول قائل: إن الآية الكريمة تخبرنا عن تحقق خصلة واحدة فيمن أسمتهم (حزب الله) بعد تحقق الإيمان بالله واليوم الآخر وهي: عدم موادة من حاد الله ورسوله. فما الحكمة من هذا الثناء الجليل وهذا الثواب الجميل ؟؟ .

أقول: إن الآية الكريمة التي ختمت بها سورة المجادلة جاءت عقيب الحديث عن المنافقين الكافرين المتعززين بأموالهم وأولادهم الذين يحسبون أنهم على شئ، وهم في كل ادعاءاتهم كاذبون، ولقد استحوذ عليهم الشيطان، وتمكن منهم وفعل بهم الأفاعيل فصاروا حزبا للشيطان ومحكوما عليهم بالخسران.

ثم تقرر السورة أن المحادين لله ورسوله في الأذلين، والغلبة لله القوي العزيز ولرسله ولأتباعهم الصادقين.

ثم تجئ القاعدة الثابتة والميزان الدقيق، والمفاضلة الكاملة بين مقابل حزب الشيطان وهم (حزب الرحمن) مدحا لحزب الله وإعلاءً لشأنهم، وزيادة ذم وتوبيخ لمقابلهم.

إن حزب الله تجردوا من كل عائق، ومن كل جاذب، وقطعوا كل العلائق الفاسدة وإن بلغت ما بلغت ، فلا ولاء ولا حب ولا ارتباط إلا بالله ولله، إنهم قد خلصت عبوديتهم لله تعالى إرادة ومحبة، وتوكلا، وإنابة، وإخباتا، وخشية، ورجاء، وخلصت أعمالهم لله، فإن أحبوا أحبوا في الله، وإن أبغضوا أبغضوا لله، وإن أعطوا أعطوا لله، وإن منعوا منعوا لله، إنهم سلموا من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره.

إن هذه وإن كانت خصلة واحدة أعني عدم موادتهم لمن حاد الله ورسوله إلا أنها خصلة جليلة لأنها أساس متين من أسس المجتمع المسلم وعلاقاته، وتعاملاته، ووحدته، وقوته والتعاون فيها يعجل بالإثمار والدمار للمجتمع، وينذر بوخيم

العواقب على كل المستويات، وفي كل الاتجاهات.

لذا أعلى القرآن الكريم شأو هذه الخصلة الجليلة، وأثنى على أربابها بهذا الثناء العاطر فمن تجرد في أرض الله من كل رابطة فاسدة وآصرة مشبوهة، ونفض عن قلبه كل عرض من أعراض الفانية، ووصل نفسه بالله تعالى وحده، وجعل حركته وسكونه، وصلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له، كان بحق من حزب الله، ومن كان من حزب الله فهو مقضي له بالفلاح.

ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله وحزبه !!!!

ولعمر الحق لقد أشاد القرآن بهم، ورفعهم إلى أعلى مقام حيث أشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعد مرتين لبعد منزلتهم في الفضل، ولزيادة تميزهم عن غيرهم، وإشارة لاختصاصهم بسعادة الدارين.

يا ليت قومي يعلمون. فشتان بين حزب الشيطان المحكوم عليهم في القرآن بالخسران، وبين حزب الله المحكوم لهم بالفلاح والرضوان.

وأختم لك الكلام في هذا المقام بما ذكره الواحدي والذي يدل على أن الجيل الصالح قد طبق هذا في أرض الواقع، فهو ليس إذن كلاماً نظريا، أو افتراضا لصورة مثالية خيالية، بل إنه في مقدور كل مكلف والله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها.

" قال ابن جريج : حُدِّثت أن أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم ، فصكه أبو بكر صكة شديدة سقط منها، ثم ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أو فعلته؟ قال: نعم قال: فلا تعد إليه، قال أبو بكر: والله لو كان السيف قريبا مني لقتلته. فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية .

وروى عن ابن مسعود أنه قال: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وفي أبي بكر: دعا ابنه يوم بدر إلى البراز فقال: يا رسول الله دعني أكن في الرعلة الأولى [1] فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: متعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري ؟

وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد.

---

(١) الرعلة: الجماعة ، وهي هنا جماعة الشهداء اهـ ملخصا من اللسان مادة : رعل ١٦٧٣/٣.

وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام ابن المغيرة يوم بدر.

وفي علي وحمزة وعبيدة: قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد ابن عتبة يوم بدر.

وذلك قوله (ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم)" اهـ [1]

وكذا في تفسير القرطبي بنحو هذا[2].

وذكره ابن كثير ملخصا[3].

وقال الحافظ ابن كثير: في قوله تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله تعالى بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم، وقوله (أولئك حزب الله) أي: هؤلاء حزب الله أي: عباد الله وأهل كرامته (ألا إن حزب الله هم المفلحون) تنويه بفلاحهم وسعادتهم، ونصرتهم في الدنيا والآخرة ..... اهـ [4].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٧٨.

(٢) تفسير القرطبي ٣٠٧/١٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٢٩/٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٣٢٩/٤.

(١١) أهل السخاء والإيثار :.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة الحشر الآية ٩.

بعد ثناء الله تعالى على المهاجرين، ووصفهم بما لا مزيد عليه في إبراز فضلهم، جاءت آيتنا لتمدح الأنصار وتبين فضلهم وشرفهم، وكرمهم ، وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، إنهم سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين، بل وآمنوا قبل كثير منهم.

ثم تبين الآية أنهم من كرمهم وحسن خلقهم، وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم، ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين بما فضلهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذكر والرتبة، ثم زادت الآية بيانا لوصفهم ورفعا لقدرهم ــ أي الأنصار ــ فقال الله (ويؤثرون على أنفسهم) غيرهم (ولو كان بهم خصاصة) أي: حاجة، فإنهم يقدمون ا لمحاويج على حاجة أنفسهم، ويبذلون بالناس قبلهم في حال احتياجهم.

يقول ابن كثير: وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله (ويطعمون الطعام على حبه) [١].

وقوله (وآتى المال على حبه) [٢] فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه، ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، ومن هذا المقام تصدق الصديق رضى الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أبقيت لأهلك " ؟ فقال رضى الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله.... إلخ [٣].

إن من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .

إن القرآن يستأصل من النفوس داء عضالا هو داء الشح الذي به تضيع الحقوق، وتثلم العلاقات، وتتصدع القرابات، وتتفكك الأسر، وتخرب الضمائر، وتهدم القيم، ويكثر الطمع، وتنتشر الموبقات، ولذا رتب الله الفلاح العام في الدارين على السلامة من هذه الآفة المقيتة (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .

نعم. إنه القانون القرآني ، والحكم الإلهي، والتربية الربانية، ألا ما أجمل الدستور الأعظم والكتاب الخالد الخاتم وهو يربي أبناءه، ويأخذ بأيديهم إلى بر الأمان، ويضع أيديهم على موطن الداء، ثم يشخص الدواء الناجع.

إن القرآن هنا يحارب آفة الشح، ويعلي شأن البرآء منها.

ولكن: ما هو الشح ؟؟

قال ابن جرير: الشح في كلام العرب: البخل ومنع الفضل من المال.

والعلماء يرون أن الشح في هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق.

ثم روى أن رجلا أتى ابن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن إني أخشى أن تكون أصابتني هذه الآية (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شئ ؟

قال: ليس ذاك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح أن تأكل مال

---

(١) سورة الإنسان من الآية ٨.

(٢) سورة البقرة من الآية ١٧٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٨.

أخيك ظلما، ذلك البخل، وبئس الشئ البخل اهـ [١].

قال الراغب : الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة [٢] .

وكذا قال البروسوي، وزاد: فيكون جامعا بين ذميمتين من صفات النفس، وإضافته إلى النفس لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل [٣].

وفي اللسان : الشح بالضم: هو البخل مع حرص، والشح أشد من البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل، وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها والشح عام.، وقال الأزهري في آيتنا هذه: من أخرج زكاته، وعف عن المال الذي لا يحل له فقد وقى شح نفسه [٤].

وفي معجم مقاييس اللغة: الشين والحاء. الأصل فيه المنع، ثم يكون منعا مع حرص، ومن ذلك الشح وهو: البخل مع حرص. اهـ [٥] .

وفي القرطبي: الشح و البخل سواء، وجعل بعض أهل اللغة: الشح أشد من البخل، وفي الصحاح: الشح: البخل مع حرص، والمراد بالآية:

الشح بالزكاة وما ليس بفرض من صلة ذوي الأرحام والضيافة وما شاكل ذلك.

فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك وإن أمسك عن نفسه، ومن وسع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يوق شح نفسه، ثم ذكر قول ابن مسعود للرجل — حسبما نقلته لك عن الطبري آنفا — وقال طاووس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، والشح أن يشح بما في أيدي الناس أي: يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحل والحرام ولا يقنع.

وقال ابن جبير: الشح: منع الزكاة وادخار الحرام.

وقال ابن عيينة: الشح : الظلم.

وقال كسرى لأصحابه: أي شئ أضر بابن آدم ؟؟ قالوا: الفقر.

قال كسرى: الشح أضر من الفقر، لأن الفقير إذا وجد شبع، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبدا . اهـ [٦] .

---

(١) تفسير الطبري ٢٨/٤٣.

(٢) المفردات ص٢٦٢.

(٣) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٤/٢٧٤.

(٤) اللسان مادة:شحح ٤/٢٢٠٤.

(٥) معجم مقاييس اللغة _مادة شحح ٣/١٧٨.

(٦) تفسير القرطبي ١٨/٣٠.

وها هي السنة المطهرة تعضد القرآن وتؤازره في حملته على آفة الشح وإعلاء شأن من نزه نفسه منها.

فعن جابر بن عبد الله أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم" [١].

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "برئ من الشح من أدى الزكاة وأقرى الضيف وأعطى في النائبة"[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً " [٣].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب / البر والصلة والآداب _باب_ تحريم الظلم حديث (٢٥٧٨) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٣٤/١٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور١٩٦/٦ وما بعدها، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢١٤/٤، وأورده الطبري في تفسيره ٤٤/٢٨، وابن كثير في تفسيره ٣٣٩/٤.

(٣) ذكره البخاري في الأدب المفرد _باب الشح حديث (٢٨٢) _ وأخرجه الترمذي دون الجملة

القارئ الكريم، إخالك الآن قد أيقنت أن آفة الشح خطرها أكثر من أن يحصر، وضررها أكبر من أن يوصف، لذا أثنى الله تعالى على من جاهد نفسه حتى يبرأ منها، وقضى له بالفلاح في الدارين..

وهل بعد ضمان الفلاح مطمح ؟ !!

يقول العلامة الألوسي عليه الرحمة :

والجملة الشرطية ــ أي (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ــ تذييل حسن، ومدح للأنصار بما هو غاية لتناوله إياهم تناولا أوليا، وفي الإفراد أولا والجمع ثانيا رعاية للفظ (مَنْ) ومعناها، وإيماء إلى قلة المتصفين بذلك في الواقع عدداً وكثرتهم في المعنى.

والناس ألف منهم كواحد ،،
وواحد كالألف إن أمرٌ عنا

ويفهم من الآية ذم الشح جداً، ثم أورد ــ طيب الله ثراه ــ بعض الروايات الدالة على ذلك. اهـ [٤].

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور:

الثانية في كتاب / فضائل الجهاد_ باب_ ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله حديث (١٦٣٣)، وابن ماجة في كتاب الجهاد/باب/ الخروج في النفير حديث (٢٧٧٤)

(٤) روح المعاني ٥٤/٢٨.

واسم الإشارة لتعظيم هذا الصنف من الناس، وصيغة القصر المؤداه بضمير الفصل للمبالغة لكثرة الفلاح الذي يترتب على وقاية شح النفس، حتى كأن جنس المفلح مقصوراً على ذلك الموقى. اهـ [١]

ويلخص لنا صاحب الظلال كيف أن الوقاية من الشح والتنزه عنه فلاح عظيم فيقول رحمه الله : فهذا الشح شح النفس هو المعوق عن كل خير، لأن الخير بذل في صورة من الصور، بذل في المال، وبذل في العاطفة، وبذل في الجهد، وبذل في الحياة عند الاقتضاء وما يمكن أن يصنع الخير شحيح، يهم دائما أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطي، ومن يوق شح نفسه فقد وقى هذا المعوق عن الخير، فانطلق إليه معطيا باذلاً كريما وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه. [٢]

وقد ذكر الله تعالى هذه الجملة الشرطية في سورة التغابن في سياق آخر توكيداً للمعنى، وتقريرا للحكم فقال تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٣]

إن ذكر الشح هنا بعد قضايا الأزواج والأولاد وفتنتهم وعداوتهم، ثم الأمر بالسمع والطاعة والإنفاق كل ذلك يشعر بأن أكثر قضايا الزوجية منشؤها من جانب المال حرصا عليه أو بخلا به، حرصا عليه بالسعي إليه بسببهم فقد يفتن في ذلك، وشحا به بعد تحصيله فقد يعادونه فيه، والعلاج الناجع في ذلك كله الإنفاق وتوقى الشح.

يقول الشيخ/ الشنقيطي طيب الله مرقده :

الشح من جبلة النفس﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [٤] وفي إضافة الشح إلى النفس مع إضافة الهداية فيما تقدم إلى القلب سر لطيف، وهو أن الشح جبلة البشرية والهداية منحة إلهية، والأولى قوة حيوانية، والثانية قوة روحية، فعلى المسلم أن يغالب بالقوة الروحية ما جبل عليه من قوة بشرية لينال الفلاح والفوز.اهـ [٥].

---

(١) التحرير والتنوير ٩٥/٢٨.

(٢) تفسير الظلال ٣٥٢٧/٦.

(٣) سورة التغابن الآية ١٦.

(٤) سورة النساء من الآية ١٢٨.

(٥) أضواء البيان ٢٠٥/٨.

إن إنفاق المال في وجوه الإنفاق المشروعة يقي صاحبه من الشح المنهي عنه، وحينئذ يكون الإنسان قد حقق لنفسه الفلاح بأبلغ وجه وآكده في الدارين .

ولما كان ذلك الفلاح فلاحا عظيما جئ في جانبه بصيغة الحصر، بطريقة تعريف المسند وهو قصر جنس المفلحين على جنس الذين وقوا شح أنفسهم، وهو قصر ادعائي للمبالغة في تحقق وصف المفلحين الذين وقوا شح أنفسهم نزل الآن فلاح غيرهم بمنزلة العدم.

١٢ــ من طهر نفسه من دنس الكفر ومن قذر المعصية :

قال تعالى (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) سورة الأعلى الآيتان ١٤ ــ ١٥ .

وقال سبحانه (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها) سورة الشمس الآيات ٧ــ ٩.

أولا : لما ذكر الله تعالى وعيد من أعرض عن النظر في الدلائل المبثوثة في الآفاق وفي الأنفس أتبعه بالوعد لضده، فقال سبحانه ــ على سبيل الاستئناف البياني ــ (قد أفلح من تزكى) أي: فاز وظفر بالنعيم المقيم في جنات النعيم بعد أن زحزح عن عذاب الجحيم.

(من تزكى) أي: من تطهر من دنـــس الشرك والمعاصي، وعمـــل بما أمر الله به.

إن الله تعالى يحقق الفلاح لمن طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، مستمسكا بما أنزل الله في كتابه، وبما بين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال العلامة الألوسي: وكلمة (قد) لما أنه عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكر في الآخرة بتوقع السامع الإخبار بحسن حال المتذكر فيها [1] .

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور ما ملخصه :

وقد جمعت أنواع الخير في قوله (قد أفلح) فإن الفلاح نجاح المرء فيما يطمح إليه، فهو يجمع معنيين الفوز والنفع، والإتيان بفعل المضي في قوله (أفلح) للتنبيه على المحقق وقوعه في الآخرة، واقترانه بحرف (قد) لتحقيقه وتثبيته كما في نظائره. اهـ بتصرف وتلخيص [2].

---

(١) روح المعاني ١١٠/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٧/٣٠.

وذكر ابن الجوزي خمسة أقوال في قوله (من تزكى) :ــ

أحدها: من تطهر من الشرك بالإيمان . قاله ابن عباس.

الثاني: من أعطى صدقة الفطر. قاله أبو سعيد الخدري وعطاء وقتادة.

الثالث: من كان عمله زاكيا. قاله الحسن والربيع.

الرابع: أنها زكوات الأموال كلها. قاله أبو الأحوص.

الخامس: تكثر بتقوى الله .

ثم قال رحمه الله : والقول قول ابن عباس في الآيتين، فإن هذه السورة مكية بلا خلاف، ولم يكن بمكة زكاة ولا عيد . اهـ [1]

وذكر القرطبي نحو هذه الأقوال، ثم قال معلقا : وقد تقدم أن هذه السورة مكية في قول الجمهور، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر، ثم قال: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل [2].

وعبارة البغوي: يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم كقوله (وأنت حل بهذا البلد) [3] والسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح.

---

(١) زاد المسير ٩١/٩ وما بعدها.

(٢) تفسير القرطبي ٢١/٢٠ وما بعدها.

(٣) سورة البلد الآية ٢.

ويقول العلامة الألوسي: وكون السورة مكية غير مجمع عليه، وعلى القول بمكيتها الذي هو الأصح يكون ذلك مما تأخر حكمه عن نزوله. ثم قال :

وأقول : يجوز أن يقال (تزكى) أي : تطهر من الشرك بأن آمن بقلبه، وذكر اسم ربه، أي: قال: لا إله إلا الله فصلى، ... فيكون (تزكى) إشارة إلى التصديق بالجنان، (وذكر اسم ربه) إلى النطق باللسان، وصلى إشارة إلى العمل بالأركان، لما أن الصلاة عماد الدين، وأفضل الأعمال البدنية، وناهية عن الفحشاء والمنكر، فلا بدع أن تذكر فيراد جميع الأعمال البدنية والعبادات القلبية .. الخ [4].

وأخرج البزار بسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله " أي قاله في بيان (من تزكى) [5].

وقال ابن كثير: (وذكر اسم ربه فصلى) هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها، وهو قول ابن عباس واختاره ابن جرير اهـ.

---

(٤) روح المعاني ١١/٣٠.

(٥) كذا قال ابن كثير ٥٠١/٤، وعزاه الألوسي للبزار وابن مردوية. انظر روح المعاني ١٠٩/٣٠ وذكره صاحب التحرير والتنوير ٢٨٨/٣٠.
وأخرجه الهيثمي بنحوه في مجمع الزوائد ١٣٧/٧.

إن إنفاق المال في وجوه الإنفاق المشروعة يقي صاحبه من الشح المنهي عنه، وحينئذ يكون الإنسان قد حقق لنفسه الفلاح بأبلغ وجه وآكده في الدارين .

ولما كان ذلك الفلاح فلاحا عظيما جئ في جانبه بصيغة الحصر، بطريقة تعريف المسند وهو قصر جنس المفلحين على جنس الذين وقوا شح أنفسهم، وهو قصر ادعائي للمبالغة في تحقق وصف المفلحين الذين وقوا شح أنفسهم نزل الآن فلاح غيرهم بمنزلة العدم.

١٢ــ من طهر نفسه من دنس الكفر ومن قذر المعصية :

قال تعالي (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) سورة الأعلى الآيتان ١٤ ــ ١٥ .

وقال سبحانه (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها) سورة الشمس الآيات ٧ــ ٩.

أولا : لما ذكر الله تعالى وعيد من أعرض عن النظر في الدلائل المبثوثة في الآفاق وفي الأنفس أتبعه بالوعد لضده، فقال سبحانه ــ على سبيل الاستئناف البياني ــ (قد أفلح من تزكى) أي: فاز وظفر بالنعيم المقيم في جنات النعيم بعد أن زحزح عن عذاب الجحيم.

(من تزكى) أي: من تطهر من دنس الشرك والمعاصي، وعمل بما أمر الله به.

إن الله تعالى يحقق الفلاح لمن طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، مستمسكا بما أنزل الله في كتابه، وبما بين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال العلامة الألوسي: وكلمة (قد) لما أنه عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكر في الآخرة يتوقع السامع الإخبار بحسن حال المتذكر فيها [1].

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور ما ملخصه :

وقد جمعت أنواع الخير في قوله (قد أفلح) فإن الفلاح نجاح المرء فيما يطمح إليه، فهو يجمع معنيين الفوز والنفع، والإتيان بفعل المضي في قوله (أفلح) للتنبيه على المحقق وقوعه في الآخرة، واقترانه بحرف (قد) لتحقيقه وتثبيته كما في نظائره. اهـ بتصرف وتلخيص [2].

---

(١) روح المعاني ١١٠/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٧/٣٠.

وذكر ابن الجوزي خمسة أقوال في قوله (من تزكى) :ــ

أحدها: من تطهر من الشرك بالإيمان . قاله ابن عباس.

الثاني: من أعطى صدقة الفطر. قاله أبو سعيد الخدري وعطاء وقتادة.

الثالث: من كان عمله زاكيا. قاله الحسن والربيع.

الرابع: أنها زكوات الأموال كلها. قاله أبو الأحوص.

الخامس: تكثر بتقوى الله .

ثم قال رحمه الله : والقول قول ابن عباس في الآيتين، فإن هذه السورة مكية بلا خلاف، ولم يكن بمكة زكاة ولا عيد . اهـ [1]

وذكر القرطبي نحو هذه الأقوال، ثم قال معلقا : وقد تقدم أن هذه السورة مكية في قول الجمهور، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر، ثم قال: ولا يبعد أن يكون أتى على من يمتثل أمره في صدقة الفطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل[2].

وعبارة البغوي: يجوز أن يكون الدول سابقا على الحكم كقوله (وأنت حل بهذا البلد) [3] والسورة مكية، وظهر أكثر الحل يوم الفتح.

---

(١) زاد المسير ٩١/٩ وما بعدها.

(٢) تفسير القرطبي ٢١/٢٠ وما بعدها.

(٣) سورة البلد الآية ٢.

ويقول العلامة الألوسي: وكون السورة مكية غير مجمع عليه، وعلى القول بمكيتها الذي هو الأصح يكون ذلك مما يأمر حكمه عن نزوله. ثم قال :

والقول : يجوز أن يقال (تزكى) أي : تطهر من الشرك بأن آمن بقلبه، وذكر اسم ربه، أي: قال: لا إله إلا الله فصلى، ... فيكون (تزكى) إشارة إلى التصديق بالجنان، (وذكر اسم ربه) إلى النطق باللسان، وصلى إشارة إلى العمل بالأركان، لما أن الصلاة عماد الدين، وأفضل الأعمال البدنية، وناهية عن الفحشاء والمنكر، فلا بدع أن تذكر فيراد جميع الأعمال البدنية والعبادات القلبية .. اهـ [1].

وأخرج البزار بسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله " أي قاله في بيان (من تزكى) [2].

وقال ابن كثير: (وذكر اسم ربه فصلى) هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها، وهو قول ابن عباس واختاره ابن جرير اهـ.

---

(١) روح المعاني ١١/٣٠.

(٢) كما قال ابن كثير ٥٠١/٤، وعزاه الألوسي للبزار وابن مردويه. انظر روح المعاني ١٠٩/٣٠ وذكره صاحب التحرير والتنوير ٢٨٨/٣٠. وأخرجه الهيثمي بنحوه في مجمع الزوائد ١٣٧/٧.

والقول بأن (من تزكى) أي: الزكاة، (وصلى) أي: الصلوات الخمس قول مرجوح عند القاسمي. [١] .

واقتصر الكيا الهراس على أن المراد بقوله (تزكى) زكاة الفطر، وزكاة المال، (وذكر اسم ربه) يدل على ذكر يناسب الزكاة، وذلك تكبيرات العيد.اهـ [٢].

وأيا ما يكن الأمر فإن من طهر نفسه من أدران الشرك، وأرجاس الكفر، وتجمل بحلية الإسلام وخلعة التوحيد، فإن له الفلاح المحقق إن شاء الله، وإن من تصدق وزكى ماله وعمله من الرياء والنفاق فإن له الفلاح المحقق إن شاء الله.

ثانيا : آية سورة الشمس: أقسم الله تعالى بأنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة، حتى يتأمل المكلف فيها، ويشكر عليها، ومن جملة ما أقسم الله به النفس الإنسانية المشتملة على أسرار لا يعلمها جميعها على حقيقتها إلا بارئها سبحانه ثم قال سبحانه (قد أفلح من زكاها....).

وهذه الجملة (قد أفلح من زكاها) يجوز أن تكون جواب القسم، وأن المعنى : تحقيق فلاح المؤمنين، وخيبة المشركين، ويجوز أن تكون جملة معترضة بين القسم والجواب لمناسبة ذكر إلهام الفجور والتقوى، أي: أفلح من زكى نفسه، واتبع ما ألهمه الله من التقوى، وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين .

قال القاسمي: (قد أفلح من زكاها) أي: زكى نفسه، وطهرها من رجس النقائص والآثام أو نماها بالعلم والعمل، والوصول إلى الكمال، وبلوغ الفطرة الأولى، (وقد خاب من دساها) أي: أهملها، ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله. اهـ [٣] .

وقال ابن الجوزي، وفي معنى الكلام قولان:

أحدهما: قد أفلحت نفس زكاها الله عز وجل. قاله ابن عباس ومقاتل والفراء والزجاج .

الثاني: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال. قاله قتادة وابن قتيبة .

ومعنى (زكاها) أصلحها وطهرها من الذنوب، (وقد خاب من دساها) فيه قولان كالذي قبله.

---

(١) تفسير محاسن التأويل ٣٨٣٦/٩.

(٢) أحكام القرآن ٢١٣/٤.

(٣) محاسن التأويل ٤١٠/٩ ، وانظر تفسير الطبري ٢١٢/٣٠.

فإن قلنا: إن الفعل لله. فمعنى (دساها) خذلها وأضلها، وأخفى محلها بالكفر والمعصية، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح.

وإن قلنا:الفعل للإنسان، فمعنى (دساها) أخفاها بالفجور.. اهـ [١]

وأختم لك القول في هذا الموضع الذي يقرر لنا أن الفلاح المحقق لمن تعهد نفسه وزكاها وصانها، ونماها، وطهرها، وجملها، وألزمها السير على صراط الله المستقيم، وألجمها بلجام الشرع والابتعاد عن كل ما نهى الله عنه.

أقول أختم بهذه الكلمة الموجزة المعبرة لشيخ الإسلام ابن القيم حيث قال:

قال أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله ، وأظهرها، وقد خاب وخسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله .

وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله (أم يدسه في التراب) [٢]فالعاصي يدس نفسه بالمعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، وقد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله تعالى، وانقمع عند الخلق.

فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شئ وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شئ وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل لله حصل لها العز والشرف والنمو، فما صغر النفس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله. اهـ [٣].

* * *

---

(١) زاد المسير ١٤١/٩.

(٢) سورة النحل من الآية ٤٩.

(٣) التفسير القيم ص٥١١.

المطلب الثالث
المرجو لهم الفلاح

هناك طوائف من البشر ذكرهم الله تعالى في القرآن، وأمرهم ببعض الخصال، ونهاهم عن بعض الخلال، ورغبهم ورهبهم، ووعدهم وتوعدهم، ثم بين أنهم إن امتثلوا ما أمروا به وانتهوا عما نهوا عنه فإنه يرجى لهم الفلاح إن شاء الله ، وينبغي أن يكونوا هم راجين للفلاح بفعلهم للمأمورات وتركهم للمحظورات.

وهم بحسب ترتيب ذكرهم في القرآن كما يلي : ــ

(١) المأمورون بالتخلي عن المعاصي والرذائل التي كانوا يفعلونها من قبل، والمأمورون بالتحلي بالفضائل التي شرعها الله، والتزام الحق وفعل الخير توسلا بذلك إلى تقوى الله تعالى ورجاء الفلاح.

قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْا الْبُيُوتَ من ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة البقرة الآية ١٨٩.

أخرج البخاري بسنده عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها.﴾[1].

وأخرجه البخاري في كتاب الحج بأتم من هذا عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء رضى الله عنه يقول: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ..) .

إذن البر في اتباع الشرع وألا يفعل المكلف شيئا إلا إذا كان فيه مرضاة الله تعالى يقول الله تعالى (واتقوا الله) أي: في تغيير أحكامه كإتيان البيوت من أبوابها، والسؤال عما لا يعني من الحكم والمصالح المودعة في مصنوعاته تعالى بعد العلم بأنه تعالى أتقن كل شئ.

أو كما يقول العلامة الألوسي: (واتقوا الله) في جميع أموركم (لعلكم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ـ باب ـ وليس البر بأن تأتوا لبيوت... الآية حديث رقم (٤٥١٢).

والرواية التالية في كتاب الحج ـ باب ـ (وأتوا لبيوت من أبوابها .. حديث (١٨٠٣).

تفلحون) أي: لكي تفوزوا بالمطلوب من الهدى والبر، فإن من اتقى الله تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وانكشفت له دقائق الأسرار حسب تقواه [1].

وقفة تأمل في معنى "لعل" عند المفسرين.

وردت هذه الكلمة (لعل) في القرآن مائة وثلاثة وثلاثين مرة، منها اثنتين وسبعين مرة مع كاف المخاطبين، ولها في القرآن دلالات متعددة منها: ــ

ــ الترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه.

ــ التعليل.

ــ الاستفهام .

ــ التمني.

وفي اللسان: قال الجوهري: (لعل) كلمة شك، وأصلها عَلّ واللام في أولها زائدة. وهي كلمة رجاء وطمع وشك، وقد جاءت في القرآن بمعنى : (كي) ، وتأتي بمعنى (عسى) وعسى ولعل من الله تحقيق اهـ ملخصا [2] .

وقال أبو حيان:(لعل) فيها لغات، ولم يجئ في القرآن إلا أفصحها.

وهي : للترجي والإطماع، وذلك بالنسبة إلى المخاطبين، والقول بأنها بمعنى (كي) مرغوب عنه، لأن الترجي لا يقع من الله تعالى إذ هو عالم الغيب والشهادة. اهـ ملخصا [3].

ورحم الله صاحب الكشاف حين قال :

(لعل) للترجي،أو:الإشفاق، قال تعالى ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ [4]

﴿لعل الساعة قريب﴾ [5] ألا ترى إلى قوله ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ [6].

وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن، ولكن لأنه إطماع من كريم رحيم إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة لجرى إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به.

ثم قال رحمه الله : ومن قال إن (لعل) بمعنى (كي) ، فإن (لعل) لا تكون بمعنى (لكي) ولكن الحقيقة ما ألقيت إليك، فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم

---

(١) روح المعاني ٢/٧٤.

(٢) لسان العرب مادة : لعل ٥/٤٠٤٣.

(٣) البحر المحيط ١/٩٥.

(٤) سورة طه من الآية ٤٤

(٥) سورة الشورى من الآية ١٧.

(٦) سورة الشورى من الآية ١٨.

ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا: عسى، ولعل، ونحوهما من الكلمات، فإذا عثر على شئ من ذلك منهم لم يبق لطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز بالمطلوب، فعلى مثله ورد كلام ملك الملوك ذي العزة والكبرياء.

ويجئ على طريق الإطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ... ﴾ الآية [1] اهـ

وكلام جار الله إلى هنا طيب، وقد استحسنه صاحب الانتصاف فقد قال: هذا كلام سديد، وأما ما أخذه عليه صاحب الانتصاف ففي كلام ذكره الزمخشري بعد هذا الكلام [2].

وقد لخص الإمام الزركشي كلام صاحب الكشاف، ثم علق عليه فقال: وهذا فيه رائحة الاعتزال في الإيجاب العقلي، وإنما يحسن الإطماع دون التحقيق كيلا يتكل العباد [3].

ولم أر في كلام جار الله تصريحا بالإيجاب العقلي، اللهم إلا إذا عنى الإمام الزركشي قوله يجري إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به" وليس في هذا رائحة اعتزال لأن الله إذا وعد فإنه لا يخلف الميعاد ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾[4]

ثم قال صاحب البرهان:

ولما وردت في كلام من يستحيل عليه الترجي والإشفاق لأن الترجي للجهل بالعاقبة، وكذلك الخوف والإشفاق وكلاهما محال على الله، فمنهم من صرفها إلى المخاطبين بمعنى: كونوا على رجاء كذا.

ثم نقل الزركشي كلاماً للزمخشري، ومجمل ما قاله الزركشي أنها تأتي للترجي في المحبوب وللإشفاق من المكروه، وتأتي للتعليل، وتأتي للاستفهام، ومثل لذلك بآيات [5] وفي الإتقان نحوه [6].

وقال الراغب: (لعل) طمع وإشفاق، وذكر بعض المفسرين أن (لعل) من الله واجب وفسر في كثير من المواضع بـ (كي).

---

(1) سورة التحريم الآية ٨.

(2) الكشاف ١/ ٤٥ مالها مش عليه.

(3) البرهان ٤/٣٩٢.

(4) سورة الروم من الآية ٦.

(5) المرجع السابق.

(6) الإتقان ١/٢٢٥ النوع الأربعون.

وقالوا: إن الطمع والإشفاق لا يصح على الله، ولعل وإن كان طمعا فإن ذلك يقتضي في كلامهم تارة طمع المخاطب، وتارة طمع المخاطب، وتارة طمع غيرهما وقوله تعالى ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ [1] أي : اذكروا الله راجين الفلاح كما قال في صفة المؤمنين ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه .﴾ [2] اهـ [3] وإذن فمعنى الترجي توقع حصول الشئ القريب بحصول سببه والاستعداد له، أي: هو كون الشئ مأمولا بما يذكر من سببه غير مقطوع به لذاته، بل يتبع قوة أسبابه مع انتفاء الموانع، ويتعلق تارة بالمتكلم، وتارة بالمخاطب، وتارة بالمتكلم عنه، وتارة بغيرهما.

وأختم لك القول في معنى (لعل) بهذا التحقيق النفيس الذي سطره العلامة المحقق الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ قال ما ملخصه:

(لعل) حرف يدل على الرجاء، ومعنى الرجاء أي: الإخبار عن قمئ وقوع أمر في المستقبل ومعناها مركب من رجاء المتكلم في المخاطب وهو معنى جزئي حرفي.

وقد شاع عند المفسرين وأهل العلوم الحيرة في محمل (لعل) الواقعة من كلام الله تعالى لأن معنى الترجي يقتضي عدم الجزم بوقوع المرجو عند المتكلم، فللشك جانب في معناها حتى قال الجوهري: "لعل كلمة شك" ، وهذا لا يناسب علم الله تعالى بأحوال الأشياء، ولأنها قد وردت في أخبار مع عدم حصول المرجو لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [4] مع أنهم لم يتذكروا.

ثم قال رحمه الله : ولهم في تأويل (لعل) الواقعة في كلام الله تعالى وجوه :

أحدها: قال سيبويه: لعل على بابها، والترجي أو التوقع إنما هو في حيز المخاطبين، واختاره الرضى قائلا: لأن الأصل ألا تخرج عن معناها بالكلية.

وما قاله سيبويه هو معنى مجازي قريب من الحقيقة وليس معنى أصليا لها.

---

(1) سورة الجمعة من الآية ١٠.

(2) سورة الإسراء من الآية ٥٧.

(3) المفردات ص٤٧١.

(4) سورة الأعراف الآية ١٣٠.

ثانيا: أن لعل للأطماع، وبه قال الزمخشري ــ كما سبق ــ والأطماع أيضا معنى مجازي للرجاء.

ثالثها: أنها للتعليل بمعنى (كي) قاله قطرب، وأبو علي الفارسي، وابن الأنباري، وأحسب أن مرادهم هذا المعنى في المواقع التي لا يظهر فيها معنى الرجاء.

رابعا: ما ذهب إليه صاحب الكشاف أنها استعارة فقال: "ولعل واقعة في الآية موقع المجاز، لأن الله تعالى خلق عباده ليتعبدهم، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا، ليترجح أمرهم، وهم مختارون بين الطاعة والعصيان، كما رجحت حال المرتجى بين أن يفعل وأن لا يفعل ومصداقه قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) [1] ، وإنما يبلى ويختبر من تخفى عنه العواقب، ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار.

ثم قال رحمه الله:

وعندي وجه آخر مستقل وهو: أن (لعل) الواقعة في مقام تعليل أمر أو نهى لها استعمال يغاير استعمال لعل المستأنفة في الكلام، والمقصود أن لعل لا ينظر إليها في كل المواضع بنظر واحد، وعلى كل حال فمعنى (لعل) غير معنى أفعال المقاربة . اهـ بتصرف يسير وتلخيص [2] .

ومن جملة معانيها أنها : للتعرض للشئ كأنه قيل: افعلوا ذلك متعرضين لأن تتقوا نص عليه أبو البقاء، وإليه مال المهدوي [3] .

هذه أقوال المفسرين في معنى (لعل) بصفة عامة، وفي المراد بها في استعمال القرآن لها بصفة خاصة، وقد أطلت بعض الشئ وأكثرت من ذكر آراء المفسرين ليقف القارئ الكريم على مدلولها أثناء قراءته لهذه الجزئية لأن المرجو لهم الفلاح جميعا مذكورون بـ (لعلكم تفلحون).

(٢) الواقعون في شبهة الربا المدعوون إلى تركه والنأي عنه :

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة آل عمران الآية ١٣٠.

هذه أول آية نزلت في تحريم الربا، ينهى الله تعالى فيها عباده المؤمنين عن

(١) سورة الملك من الآية ٢.

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٩/١ وما بعدها.

(٣) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ١٤٧/١ ـ وانظر إعراب القرآن للأستاذ/محي الدين الدرويش ٦٥/١.

تعاطي الربا وأكله أضعافا مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يقولون:

إذا حل أجل الدين فإما أن تقضي ، وإما أن تربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر وهكذا كل عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفا، ثم أمرهم الله تعالى بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى وفي الآخرة، وإلا فالنار معدة لهم وللكافرين.

يقول صاحب المنار ما ملخصه :

هذا أول ما نزل في تحريم الربا، والمراد بالربا فيها ربا الجاهلية المعهود عند المخاطبين عند نزولها، لا مطلق المعنى الذي هو الزيادة، فما كل ما يسمى زيادة محرم.

ثم قال بعد كلام طويل: وحاصل المعنى:

لا تأكلوا الربا حال كونه أضعافا تضاعف بتأخير أجل الدين الذي هو رأس المال، وزيادة المال ضعف ما كان ، كما كنتم تفعلون في الجاهلية، فإن الإسلام لا يبيح لكم ذلك لما فيه من القسوة والبخل، واستغلال ضرورة المعوز أو حاجته، واتقوا الله في أهل الحاجة والبؤس فلا تحملوهم من الدين هذه الأثقال التي تخرب بيوتهم (لعلكم تفلحون)في دنياكم بالتراحم والتعاون. [1]

وقال أبو السعود : (واتقوا الله) فيما نهيتم عنه من الأعمال التي من جملتها الربا (لعلكم تفلحون) راجين الفلاح [2].

وقد ربط الحق سبحانه النهى عن الربا بالإيمان في ابتداء الآية حيث قال (يا أيها الذين آمنوا) وبالتقوى والفلاح في آخرها حيث قال (واتقوا الله لعلكم تفلحون) فمن آمن بالله حقا وامتثل حكم الله، وانتهى عن الربا بكل صوره وأشكاله، واتقى الله في جميع أقواله وأفعاله، وجميع سلوكه ومعاملاته حينئذ يرجى له الفلاح ، أو يفعل ذلك وهو راج للفلاح في الحياتين. والله أعلم.

(٣) المرغبون في الصبر والمصابرة والمرابطة :ـ

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة آل عمران الآية ٢٠٠.

(١) تفسير المنار ١٠٤/٤ وما عدها.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣٢/٢.

نداء العزة والكرامة من الحق سبحانه للمؤمنين من عباده وأمر لهم بأن يتصفوا بأمور أربعة هي : ــ

الصبر : وهو حبس النفس على ما تكره ابتغاء وجه الله الأعلى.

المصابرة : والمصابرة أشد من الصبر لأنها صبر في وجه العدو، ثم إنه عدو صابر أيضا، ولهذا فالغلبة والنجاح لأيهما أطول صبراً، وأنت خبير بأن زيادة المبني تدل على زيادة المعنى.

المرابطة : وهي ربط النفس والخيل والعتاد الحربي في الثغور الإسلامية، وهي الأماكن التي يخشى أن يتسلل منها العدو إلى بلاد المسلمين.

إن معنى المرابطة يتسع ليشمل كل جهد يبذل من زراعة وصناعة وتجارة وعلم الخ بقصد إعفاف النفس وكفايتها وإغناء الأمة ورفع رايتها، وسد حاجاتها، ومن جميع ذلك وبجهد أبنائها تستمد قوتها وتحفظ هيبتها، ويعمل لها عدوها ألف حساب.

نعم إن قوله تعالى (رابطوا) معناه عند الجمهور: رابطوا أعداءكم الخيل أي: ارتبطوها كما يرتبطها أعداؤكم، والرباط الملازمة في سبيل الله، أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطا فارسا كان أو راجلا.

وفي فضل الرباط أحاديث كثيرة يطول المقام بذكرها وحصرها، منها ما رواه الإمام مسلم بسنده عن سلمان قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله،وأجرى عليه رزقه،وأمن الفتّان" [1].

وفي تفسير الثعالبي: روى ابن المبارك في رقائقه: أن هذه الآية إنما نزلت في انتظار الصلاة خلف الصلاة. قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: ولم يكن يومئذ عدو يرابط فيه " اهـ وقوله سبحانه (لعلكم تفلحون) ترج في حق البشر [2].

قلت: ولا مانع أن يكون هذا المعنى مراداً أيضا وذلك مما يشهد له ما أخرجه مسلم بسنده مرفوعا: " ألا أدلكم على ما

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ـ باب ـ فضل الرباط في سبيل الله حديث (١٩١٣) قال النووي؛ قال القاضي رواية الأكثرين بضم الفاء جمع فاتن ، ورواية الطبري بالفتح، وفي رواية أبي داود في سننه " أومن من فتاني القبر" اهـ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٦١/١٣.

(٢) تفسير الثعالبي ١٥٨/٢.

يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ ؟ قالوا: بلى يا رسول الله . قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط " [1].

وفي الخازن: قال محمد بن كعب القرظي: يقول الله عز وجل (واتقوا الله) فيما بيني وبينكم (لعلكم تفلحون) بلقائي" وقيل: اصبروا على النعماء،وصابروا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار [2] الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء (لعلكم تفلحون) في دار البقاء.

وقيل: اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة، واتقوا ما يعقبكم الندامة لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه [3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب ـ الطهارة ـ باب ـ فضل إسباغ الوضوء على المكاره حديث (٢٥١) انظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٤١/٣.

(٢) هكذا في التفسير . ولعل الصواب في درء.

(٣) تفسير الخازن ٤٧٢/١.

وفي محاسن التأويل: (واتقوا الله) فيما عليكم (لعلكم تفلحون) أي: تفوزون بما يغتبط به، و(لعل) لتغييب المآل لئلا يتكلوا على الآمال اهـ [4].

(٤) المأمورون بتقوى الله وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيله .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة المائدة الآية ٣٥.

نداء معروف ومكرر في القرآن تسعين مرة، إنه النداء بوصف الإيمان، ثم أمر من الله تبارك وتعالى بالتقوى التي هي أم الفضائل، ثم أمر إلهي بابتغاء الوسيلة إليه تعالى شأنه ثم أمر بالجهاد في سبيل الله رجاء تحقق الفلاح.

يا من آمنتم بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا (اتقوا الله) راقبوه في أعمالكم، وامتثلوا ما يأمركم به وانتهوا عما ينهاكم عنه، والله تعالى لا ينادي المؤمنين إلا لكونهم أهلا لهذا النداء، ولا يناديهم إلا ليأمرهم أو ينهاهم ، أو يبشرهم ، أو يحذرهم، إذ في الأمر فعل ما تزكو به

---

(٤) تفسير محاسن التأويل للقاسمي ٥٤١/٢.

النفوس، وفي النهي ما يبعدها عما يدسيها ويرديها، وفي البشارة ما يرغب في فعل الصالحات، وفي النذارة ما يبعدها عن مقارفة ما يغضب الله تعالى.

(وابتغوا إليه الوسيلة) أي: اطلبوا إليه القربة، كذا فسره ابن عباس ومجاهد، والحسن، وابن زيد، وعطاء، والثوري، وقتادة وغير واحد.

قال ابن كثير: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه[1].

ونقله عنه القاسمي في تفسيره[2].

فالوسيلة: لفظ عام يشمل جميع الأعمال الصالحة، وسائر القرب التي يتقرب بها العبد إلى ربه ليظفر بحبه ورضاه والقرب منه.

واعلم رحمك الله أن للوسيلة معان أخرى ذهب إليها بعضهم يأباها السياق هنا. والمعنى المذكور هو ما ذهب إليه الجمهور. قال الراغب:

الوسيلة: التوصل إلى الشئ برغبة، وهي أخص من الوسيلة لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة)، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة وهي كالقربة، والواسل: الراغب إلى الله تعالى. اهـ[3].

وقال العلامة الألوسي: (وابتغوا إليه) اطلبوا لأنفسكم إلى ثوابه والزلفى منه (الوسيلة) وهي فعلية بمعنى: ما يتوسل به ويتقرب إلى الله عز وجل من فعل الطاعات، وترك المعاصي، من وسل إلى كذا أي: تقرب إليه بشئ، والظرف (إليه) متعلق بها، وقدم عليها للاهتمام، وقيل: الجملة الأولى (اتقوا الله) أمر بترك المعاصي، والجملة الثانية (وابتغوا إليه الوسيلة) أمر بفعل الطاعات.

وأخرج ابن الأنباري وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الوسيلة: الحاجة. وأنشد له قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ٠٠
إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

وكأن المعنى ــ حينئذ ــ: اطلبوا متوجهين إليه حاجتكم، فإن بيده عز شأنه مقاليد السموات والأرض، ولا تطلبوها متوجهين إلى غيره..، وفسر بعضهم الوسيلة: بمنزلة في الجنة، وكونها بهذا المعنى غير ظاهر ــ هنا ــ لاختصاصها بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(1) تفسير ابن كثير ٢/٥٢.

(2) تفسير محاسن التأويل ٤/١٣٨.

(3) المفردات ص٥٦٠.

واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين، وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد، والقسم على الله تعالى بهم بأن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا، ومنهم من يقول للغائب أو الميت من عباد الله تعالى الصالحين، يا فلان ادع الله تعالى ليرزقني كذا وكذا، ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة، ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور، أو فاستغيثوا بأهل القبور" وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل ... الخ[1].

إن جمهور المفسرين ــ كما أشرت آنفا ــ قالوا: إن الوسيلة هي ما يتوسل به إلى الله تعالى والزلفى منه من فعل الطاعات وترك السيئات[2].

وليعلم القارئ بأن هذه المسألة قد تضل فيها الأفهام وتزل فيها الأقدام فليعض بالنواجذ على أقوال هؤلاء الثقات الأعلام.

(وجاهدوا في سبيله) مع أعدائكم بما أمكنكم بأموالكم وأنفسكم كما صرحت به آيات أخرى (لعلكم تفلحون) بنيل نعيم الأبد والخلاص من كل نكد.

قال الخازن: لكي تسعدوا بالخلود في جنته، لأن الفلاح اسم جامع للخلاص من كل مكروه، والفوز بكل محبوب[3].

وهكذا ترى ــ رحمك الله ــ أن امتثال التقوى وصدق الرغبة في طلب القربة إلى الله تعالى والجهاد في سبيل الله بكل سبيل، كل ذلك سبيل لتحقيق الفلاح في الدارين إن شاء الله.

(٥) اجتنابه الخمر والميسر والأنصاب والأزلام معصية للشيطان وطاعة للرحمن ــ

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة المائدة الآية ٩٠.

نداء من الله تعالى لعباده المؤمنين يحمل لهم تحريما صريحا وشديداً لهذه المنكرات الأربعة فالخمر هي كل ما خامر العقل أي: ستره، والميسر: أصله اللعب

---

(1) بتصرف يسير وتلخيص من روح المعاني ٦/١٢٤ وما بعدها وللعلامة الألوسي تحقيق نفيس في هذه المسألة أفاد فيه وأجاد فليرجع إله من أراد.

(2) أقوال العلماء تدور حول هذه العبارة انظر الكشاف ١/٣٣٦، إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢/٢٦٦، المحرر الوجيز ٢/١٨٦، تفسير البيضاوي ٢/٨٦ وغيرهم

(3) تفسير الخازن ٢/٤٧.

بالقداح للقمار، وأصبح يطلق الميسر على القمار، فكل لعب يقامر به هو ميسر، والأنصاب: جمع نصب وهو ما ينصب من الأحجار والتماثيل والصور للعبادة بأي صورة من صور العبادة، والأزلام: جمع زلم، وهي سهام يستقسمون بها في الجاهلية.

قال القرطبي ما ملخصه :

والأزلام للعرب ثلاثة أنواع هي: ــ

الأولى: هي الثلاثة التي كان يتخذها كل إنسان لنفسه، على أحدها افعل، وعلى الثانية لا تفعل، والثالث مهمل لا شئ عليه.

الثانية : سبعة قداح كانت عند هبل في جوف الكعبة مكتوب عليها ما يدور بين الناس من النوازل كل قِدْح منها في كتاب، قدح فيه العقل من أمر الديات، وفي آخر (منكم) وفي آخر (من غيركم) وفي آخر (ملصق)، وفي سائر أحكام المياه وغير ذلك، ولذا كانت عند كل كاهن من كهانهم.

الثالثة: قداح الميسر وهي عشرة، سبعة منها فيها حظوظ، وثلاثة أغفال، وكانوا يضربون بها لهواً ولعباً، وقال سفيان ووكيع: هي الشطرنج [1]

كل ذلك (رجس من عمل الشيطان) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي سخط من عمل الشيطان، وقال سعيد بن جبير: إثم، وقال زيد بن أسلم: أي شر (فاجتنبوه) الضمير عائد على الرجس كما قال ابن كثير [2]

إن الرجس هو الشئ القذر المستقبح شرعا وعقلا.

قال الراغب: والرجس على أربعة أوجه :

إما من حيث الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشرع، وإما من كل ذلك ، كالميتة فإنها تعاف طبعا وعقلا وشرعا، والرجس من جهة الشرع: الخمر والميسر، وقيل إن ذلك الرجس من جهة العقل، وجعل الكافرين رجسا من حيث إن الشرك بالفعل أقبح الأشياء، وقيل: الرجس النتن، وقيل: الرجس العذاب. اهـ ملخصا [3] .

وهكذا بعد أن أمر الله باجتناب هذه القبائح الشنيعة ونفر منها بأسلوب بليغ حيث جعلها رجسا، ومن عمل الشيطان، وعبر عن ذلك بأسلوب الحصر، ثم أمر

---

(١) تفسير القرطبي ٥٨/٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٩٢/٢.

(٣) المفردات ص١٩٣.

بالاجتناب وهو أقوى من مجرد التحريم، وبدأ الآية بنداء المكلفين بنداء الإيمان حثا لهم على حسن الامتثال وسرعة الالتزام، ثم ختمها ببيان أن ذلك الامتثال والالتزام يرجى منه تحقيق الفلاح لصاحبه (لعلكم تفلحون) فعلق الفلاح بالأمر، كأنه قال: اتركوا ما ذكر رجاء أن تنالوا الفلاح، فتنجوا من السخط والعذاب، وتأمنوا في الآخرة من سوء الحساب.

قال الألوسي: أي: راجين فلاحكم، أو: لكي تفلحوا بالاجتناب عنه اهـ [1]

وإذا كان الاجتناب فلاحا كان الوقوع في كل ذلك أو بعضه خيبة وبوراً وخسراناً.

(٦) حكم التعبد بالخبيث ولو كثر ــ

قال تعالى: ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة المائدة الآية ١٠٠.

حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الردئ والجيد، والخبيث والطيب من الأعمال والأقوال والأموال والأعمار والأولاد وغير ذلك.

والمراد به: الترغيب في صالح الأعمال، والتحري في الحلال من الأموال، فإن مدار الاعتبار بالجودة والرداءة لا بالقلة والكثرة، فإن القليل المحمود خير من الكثير المذموم، وقد جاء في الحديث: " ما قل وكفى خير مما كثر وألهى " [2] .

وفي تفسير القرطبي: قال الحسن: الخبيث والطيب الحرام والحلال.

وقال السدي: المؤمن والكافر .

وقيل: المطيع والعاصي.

وقيل: الجيد والردئ.

وهذا على ضرب المثال، والصحيح أن اللفظ عام في جميع الأمور، يتصور في المكاسب والأعمال والناس والمعارف من العلوم وغيرها، فالخبيث من هذا كله لا يفلح، ولا ينجب، ولا تحسن له عاقبة وإن كثر، والطيب وإن قل نافع جميل العاقبة اهـ [3]

---

(١) تفسير الألوسي ١٦/٧.

(٢) عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة لأبي يعلى، والنسائي، والعسكري من حديث عمارة ابن غزية عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه مرفوعا. انظر ص٥٨٥ وانظر تفسير ابن كثير ١٠٤/٢.

(٣) تفسير القرطبي ٣٢٧/٦.

والخطاب في قوله (ولو أعجبك..) لكل معتبر، ولذلك قال (فاتقوا الله يا أولي الألباب) أي: فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر، وآثروا الطيب وإن قل (لعلكم تفلحون) راجين أن تنالوا بذلك الفلاح في الدنيا والفوز بالثواب العظيم والنعيم المقيم في الآخرة.

(٧) تذكر آلاء الله :ـ

قال تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة الأعراف الآية :٦٩.

المعنى: لا تتعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا منكم ليخوفكم عقاب الله وانتقامه إن ظللتم على كفركم مستخدما كل أساليب الوعظ والتذكير، والأمر والنهى، بل ينبغي عليكم أن تحمدوه تعالى شأنه على آلائه عليكم والتي من جملتها أن جعلكم الله خلفاء في الأرض بعد إهلاك قوم نوح، فأنتم من ذرية من حملهم نوح في السفينة، ومن ذلك أيضا أن جعلكم الله أطول من بني جنسكم وأقوى وأشد، فكل هذا يقتضي منكم تذكر نعم الله عليكم، وتشكروه على ما أنتم فيه ـ وهذا تعميم بعد تخصيص ـ (لعلكم تفلحون) لتفوزوا وتسعدوا في دنياكم وأخراكم.

إن الآية في سياق الحديث عن عاد قوم هود، وهي تلفت الأنظار إلى تشابه حال الكفار من أقوام الأنبياء في كل العصور، كما تبين سنة من سنن الله في الخلق، ﴿ سُنَّةَ اللّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [1]

فسبيل الفلاح معلومة ومرسومة وواضحة لمن أراد، إن تذكر آلاء الله تعالى، ونسبة النعم إلى المنعم سبحانه، والقيام بحقها من شكر مسديها، وتوظيفها فيما يليق بها حسب المنهج الإلهي، كل ذلك يؤدي ويحقق لصاحبه الفلاح في الدنيا والآخرة .

قال صاحب تفسير المنار: فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم، وزيادتها لهم، ولن تكونوا كذلك إلا إذا عبدتموه وحده، ولم تشركوا بعبادته أحداً لا على سبيل الاستقلال، ولا على سبيل جعله واسطة بينكم وبينه .. الخ [2] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٢.

(٢) تفسير المنار ٨/٤٦٤.

(٨) الثبات وذكر الله عند اللقاء :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ سورة الأنفال الآية ٤٥.

يحض الله تعالى المؤمنين أهل الامتثال لنداء الكبير المتعال، على الثبات في وجه الأعداء حين اللقاء [1]

إبرازاً للقوة الإيمانية ، والقوة النفسية، والقوة الجسدية القتالية وإعلاما بقوة الحق الذي يدافع عنه المؤمنون به .

وكذلك يحضهم على إدامة ذكرهم لله تعالى تهليلاً وتكبيراً وتسبيحا، ودعاء وتضرعا، وتذكراً وعده لأوليائه بالنصر على أعدائه، كي يفوزوا في الدنيا بالنصر والغنيمة، وفي الآخرة بمنزلة الشهداء العظيمة، وليفوزوا من ذل العار المترتب على الفرار،وليفوزوا من الخزي أمام الكفار.

يقول ابن عطية: هذا أمر بما فيه داعية النصر وسبب العز، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في كل ولاية لا يطلب ولا يتمنى، فإن ابتلى صبرعلى إقامة الحق.

والذكر هنا يكون خفيا لأن رفع الأصوات في موطن القتال مكروه إذا كان إلغاطا، فأما إن كان من الجمع عند الحملة فحسن فاتّ في عضد العدو [2].

وفي الآية تنبيه على أن العبد ينبغي ألا يشغله شئ عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، وأن يقبل على ربه فارغ البال، واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال .

يقول صاحب المنار: (لعلكم تفلحون) هذا الرجاء منوط بالأمرين كليهما، أي إن الثبات وذكر الله تعالى هما السببان المعنويان للفلاح والفوز في القتال في الدنيا، ثم في نيل الثواب في الآخرة، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فأظهر، وأمثلته أكثر، ومن أظهرها ما نزلت هذه الآية في سياقه، وهذه السورة بجملتها في بيان حكمه، وأحكامه، وسنن الله فيه وهو غزوة بدر الكبرى ... ثم ذكر ـ رحمه الله ـ أمثلة أخرى كثيرة من الحروب المعاصرة كان الثبات والتدين هما أعظم العوامل في تحقيق النصر [3]

---

(١) أي : إذا حاربتم جماعة، ولم يصف الله الفئة بالمحاربة لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء كما يقول البيضاوي مما غلب في القتال . انظر تفسير البيضاوي ٢/ ٣٨ ٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٥٣٦.

(٣) تفسير المنار ١٠/٢٣.

(٩) الإخبار من الطاعات وفعل الخيرات :

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة الحج الآية ٧٧.

نداء إلهي للمؤمنين الحقيقين بالامتثال وأمر من الله ذي الجلال بالركوع والسجود ــ أي الصلاة ــ وبالعبادة الخالصة للكبير المتعال، ثم بفعل سائر الخيرات وكريم الخلال وفضائل الأعمال.

قال القرطبي : خص الركوع والسجود تشريفا للصلاة [١].

أو: لأنهما أشرف وأعظم أفعال الصلاة.

أو: لكونهما لا يكونان مجتمعان إلا في الصلاة، فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة.

والمراد بالعبادة في قوله (واعبدوا ربكم) أي: سائر العبادات المفروضة كلها، ويكون هذا من قبيل ذكر العام بعد الخاص لإرادة الشمول.

ويجوز كما في مفاتيح الغيب: المراد: اعبدوه ولا تعبدوا غيره، أو: اعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات، أو: افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة، لأنه لا يكفي أن يفعل، فإنه ما لم يقصد به عبادة الله لا ينفع في باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود [٢]

(وافعلوا الخير) أي: ما وراء المفروضات من النوافل والمندوبات.

ويظهر في هذا الترتيب أنهم أمروا أولا: بالصلاة وهي نوع من العبادة، وثانيا: بالعبادة، وهي نوع من فعل الخير، وثالثا بفعل الخير وهو أعم من العبادة، فبدأت الآية بخاص ثم بعام ثم بأعم.

ورحم الله صاحب الكشاف قال:

دعا الله المؤمنين أولا إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عم

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٩٨ وعبارة الخطيب الشربيني : إنما خص هذين الركنين في التعبير عن الصلاة لأنهما لمخالفتهما الهيئات المعتادة، هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير بهما. اهـ السراج المنير ٢/ ٦٢٧ وفي التفسير الكبير: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس في أول إسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية اهـ

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٣/ ٧٢.

بالحث على سائر الخيرات كصلة الأرحام ومكارم الأخلاق اهـ ملخصا [١].

(لعلكم تفلحون) قيل معناه: لتفلحوا، والفلاح الظفر بنعيم الآخرة.

أو: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه غير مستيقنين.

وينقل الإمام الفخر عن الإمام أبي القاسم الأنصاري كلمة جميلة جليلة في إيثار التعبير بكلمة (لعل) دون القطع بتحقيق الفلاح لهم، يقول رحمه الله :

(لعل) كلمة للترجية فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير، وليس هو على يقين من أن الذي أتى به هل هو مقبول عند الله، والعواقب أيضا مستورة . اهـ [٢]

وذكرها الخطيب الشربيني في تفسيره عنه أيضا [٣].

(١٠) التائبون :ــ

قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٤].

إن تكاليف الله تعالى في كل أمر لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها والإتيان بها على الوجه الأكمل والأوفى وإن ضبط نفسه واجتهد، فلا ينفك من تقصير يقع فيه، فلذلك وصى الله تعالى جميع المؤمنين بالتوبة والاستغفار، وتأميل الفلاح إذا تابوا وأنابوا.

والمعنى: افعلوا ما أمركم به ربكم من هذه الصفات الجليلة، والأخلاق الجميلة، والفضائل النبيلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية، واتركوا ما نهيتم عنه من الرذائل والمنكرات والقبائح والسيئات، افعلوا هذا وأنتم راجون الفلاح من الله تعالى في الحياتين والفوز في الدارين.

إن المؤمن مأمور بالتوبة دائما لأنه كما قلنا لا يخلو من سهو أو تقصير، أو قل: لأنه غير معصوم .

والجملة كما يقول الشيخ ابن عاشور ــ رحمه الله ــ : معطوفة على جملة (قل للمؤمنين) ووقع التفات من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الأمة لأن هذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل وليس استئناف تشريع.اهـ [٥].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤١.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٣/ ٧٢.

(٣) السراج المنير ٢/ ٦٢٧.

(٤) سورة النور من الآية ٣١.

(٥) التحرير والتنوير ١٨/ ٢١٤.

إنه لا فلاح ولا نجاح ولا فوز إلا بالتوبة من كل زلة، والإنابة إلى الله بالكلية.

(١١) من تاب من شرك وآمن وعمل لله صالحاً.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾. سورة القصص الآية ٦٧.

لما ذكر الله تعالى حال الكافرين وما جرى عليهم، ذكر حال المؤمنين وما جرى لهم جريا على عادة القرآن أنه إذا ذكر أحد الفريقين ذكر الآخر.

قال سبحانه (فأما من تاب) من الشرك (وآمن) إيمانا حقيقيا صادقا (وعمل صالحا) قام بأركان الإسلام وأدى جميع الفرائض. إذ لا إيمان بلا عمل صالح، ولا عمل يعتد به بلا إيمان يسبقه (فعسى أن يكون من المفلحين) أي: يرجى له الفلاح بوعد الله تعالى.

قال الزمخشري:

(عسى) من الله إكرام وتحقيق، ويجوز أن يراد ترجي التائب وطمعه، كأنه قال: فليطمع أن يفلح. اهـ [١]

ونقله القاسمي عنه في تفسيره [٢]

وقال القاضي عبد الحق ابن عطية:

وقال كثير من العلماء (عسى) من الله واجبة. قال: وهذا ظن حسن بالله تعالى يشبه فضله وكرمه. واللازم من (عسى) أنها ترجية لا واجبة، وفي كتاب الله (عسى ربه إن طلقكن) [٣] ويمضي القاضي البيضاوي في نفس الاتجاه فيقول:

(عسى) تحقيق على عادة الكرام، أو: ترج من التائب بمعنى: فليتوقع أن يفلح [٤] وقريب منها عبارة أبي السعود:

أي: الفائزين بالمطلوب عنده تعالى، الناجين عن المهروب، وعسى للتحقيق، على عادة الكرام، أو: للترجي من قبل التائب بمعنى فليتوقع الإفلاح [٥]

وذكر الشيخ العلامة الطاهر ابن عاشور نحو ما سبق ثم قال: وقوله (من المفلحين) أشد في إثبات الفلاح من: أن يفلح [٦]

---

(١) الكشاف ١٧٦/٣.

(٢) تفسير القاسمي ٥٥٣/٧.

(٣) تفسير ابن عطية ٢٩٥/٤ والآية رقم ٥ من سورة التحريم.

(٤) تفسير البيضاوي ٢٣٧/٤.

(٥) تفسير أبي السعود ١٦٤/٥.

(٦) التحرير والتنوير ١٦٤/٢٠.

(١٢) السعي في مجالات الحياة بعد الصلاة مع دوام ذكر الله:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة الجمعة الآية ١٠.

الآية في سياق حديث السورة عن الآداب المرعية والأخلاق المرضية التي يجب التحلي بها قبل صلاة الجمعة وأثناءها، وبعدها.

يقول سبحانه (فإذا قضيت الصلاة) أي: أديت وفرغ منها على الوجه المرضي (فانتشروا في الأرض) أي: للتجارة والتصرف في حوائجكم، وإقامة مصالحكم، وتحقيق شؤونكم العامة والخاصة (وابتغوا من فضل الله) أي: اطلبوا بأعمالكم والتمسوا من فضل الله تعالى غير ناسين مسبب الأسباب سبحانه وإن باشرتم الأسباب، فالأسباب لا تعطي بذاتها، ولذا لم يقل الله تعالى: وابتغوا الرزق، حتى لا يفتن أحد بسعيه وكسبه، وهو شبيه بقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ... ﴾ [١]

(واذكروا الله كثيراً) أي: ذكراً كثيراً، والأمر بالذكر على سبيل الاستقلال حتى لا يقصر المسلم ذكره لربه على حالة الصلاة فقط، والمراد بالذكر ما يشمل جميع أحوال الإنسان أي: في كل أقواله وفي جميع أحواله، وسائر حركاته وسكناته فإن ذلك سبيل الفلاح (لعلكم تفلحون) كي تفوزوا بخير الدارين وتسعدوا في الحياتين.

اشتملت الآية الكريمة على ثلاثة أوامر إلهية، وبعيداً عن خلاف العلماء هل الأوامر للوجوب أو للندب؟ أقول: إن العبد لا ينتشر في الأرض إلا بإذن سيده، ولا يطلب إلا من سيده، وهو دائما يذكر سيده وولي نعمته، بل ومن يمتلك حياته، لذا جاء الأمر الإلهي بالانتشار في الأرض بعد الحظر المذكور في الآية السابقة.

قال ابن جرير الطبري: أي: اذكروه بالحمد له والشكر له على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم، وتصلوا إلى الخلد في جناته" [٢].

نعم إن الأمر بذكر الله ذكراً كثيراً تكرر في القرآن في مواضع عدة، وذلك حتى يصير الذكر ملكة للإنسان تظهر

---

(١) سورة الملك الآية ١٥.

(٢) تفسير الطبري ١٠٣/٢٨.

آثارها على أقواله وأفعاله، ثم تبين آيتنا أنه سبيل من سبل الفلاح في الدارين والسعادة والفوز في الحياتين.

قال أبو السعود: (واذكروا الله كثيراً) أي: واذكروا الله ذكراً كثيراً، أو زماناً كثيراً، ولا تخصوا ذكره تعالى بالصلاة (لعلكم تفلحون) كي تفوزوا بخير الدارين . اهـ [1]

قال صلى الله عليه وسلم : " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم" ؟ قالوا: بلى، قال: "ذكر الله تعالى" قال معاذ بن جبل: ما شئ أنجى من عذاب الله عز وجل من ذكر الله " [2]

المطلب الرابع

المقضي عليهم بعدم الفلاح

لقد ذكر الله تعالى أصنافا من البشر آثروا طريق الغواية على طريق الهداية، وتشبثوا بعبادة الشيطان دون عبادة الرحمن، وانغمسوا فى بحار الرذيلة إلى الأذقان، فباتت لهم طبعا وطبيعة وسجية وديدنا، وأماتوا في قلوبهم فطرة الخير التي خلقوا بها، فصاروا لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكراً، بل أصبح المعروف عندهم منكراً، والمنكر عندهم معروفا.

إن القرآن الكريم وصفهم تارة بالظالمين، وتارة بالكافرين، وثالثة بالمجرمين، ورابعة بالساحرين، وخامسة بالمفترين على الله الكذب.

إنها أوصاف لجماعات كل جماعة غلب عليها وصف من هذه الأوصاف مع عدم نقائهم من باقيها، وهؤلاء علم الله تعالى أزلا إيثارهم الضلال، وركوبهم متن العناد، وصدق الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ {٩٦} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ {٩٧}﴾ [3]

(١) تفسير أبي السعود ٦/٢٤٩.

(٢) أخرجه الترمذي بسنده عن أبي الدرداء مرفوعا في كتاب الدعوات ــ باب ــ ما جاء في فضل الذكر ــ حديث (٣٣٧٧) ج٥ /٢٨٩. وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب ــ باب ــ فضل الذكر حديث (٣٧٩٠) ج٢ / ١٢٤٥.

(٣) سورة يونس الآيتان ٩٦ ــ ٩٧ وفي معناها يقول العلامة الألوسي ما ملخصه : إن الذين حقت

أولا : الظالمون : ــ

وصرحت الآيات بنفي الفلاح عنهم في أربع آيات :

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [1]

وقال سبحانه ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [2]

عليهم كلمة الله أي: حكمه وقضاؤه المفسر عند الأشاعرة بإرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في النار، إن هؤلاء لا يؤمنون ، لأنه لا يمكن أن ينتقض قضاؤه تعالى شأنه، وتتخلف إرادته (ولو جاءتهم كل آية) واضحة المدلول مقبولة لدى العقول، فأفعال العباد بأسرها معلومة له تعالى ومرادة، ولا يكون إلا ما أراده؛ وعلمه عز شأنه وإرادته متوافقان ، ولا تجوز المخالفة بينهما، ولا يتعلق علمه تعالى إلا بما عليه الشئ في نفسه، ولا يريد إلا ما علم ، ولا يقدر إلا ما يريد، ولا جبر هناك ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين . اهـ بتصرف وتلخيص يسيرين . روح المعاني ١١/١٩١.

(١) سورة الأنعام الآية ٢١.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٥.

وقال عز شأنه ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [3]

وقال جل جلاله ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [4]

قال الراغب: الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشئ في غير موضعه المختص به، إما بنقصان، وإما بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه.

والظلم يقال: في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير، ولذلك قيل لآدم في تعديه ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظلمين بون بعيد.

قال بعض العلماء: الظلم ثلاثة :

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الشرك والكفر والنفاق.

(٣) سورة يوسف الآية ٢٣.

(٤) سورة القصص الآية ٣٧.

الثاني: ظلم بين الإنسان وبين الناس.

الثالث: ظلم بين الإنسان وبين نفسه، وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس. اهـ [١]

وقال الدامغاني: الظلم يأتي في القرآن بمعنى الشرك، ويأتي بمعنى فعل الذنب من غير شرك، ويأتي بمعنى ظلم الناس بالقتل وغيره، ويأتي بمعنى النقص.

ثم قال: وتفسير الظالمين على سبعة أوجه :

المشركين ــ من أذنب من المسلمين من غير شرك ــ الذين يظلمون الناس ــ الضرر ــ الجور ــ الجحود للقرآن ــ السارق. ثم مثل لكل وجه [٢]

نظرة تأمل في الآيات الأربع :

إن آية الأنعام ــ الأولى ــ وردت في حق المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله وبأن الأصنام تشفع لهم، والمكذبين بالقرآن، وسائر الآيات، (إنه) أي الشأن الخطير (لايفلح) أي: لا يفوز بمطلوب ولا ينجو من مرهوب (الظالمون) من حيث أنهم ظالمون، فكيف يفلح الأظلم من حيث أنه أظلم !!!.

وآية الأنعام ــ الثانية ــ تهديد من الله تعالى للمشركين على لسان الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم بأن يعملوا ما استطاعوا وما أرادوا، فالنبي صلى الله عليه وسلم ثابت على الإسلام، وثابت على مصابرتهم، ولسوف تعلمون أيها المشركون أينا تكون له العاقبة الحسنة.

(إنه) أي: الشأن عنده سبحانه (لايفلح الظالمون)أي: لا يظفروا بمطلوبهم.

يقول العلامة الألوسي :

ووضع الظلم موضع الكفر لأنه أعم منه، وهو [٣] أكثر فائدة لأنه إذا لم يفلح الظالم فكيف الكافر المتصف بأعظم أفراد الظلم ؟ اهـ [٤]

وختام الآية بما ختمت به فيه أيضا تهديد وزجر لكل ظالم، وتحذير من الاتصاف بهذا الوصف .

قال الشيخ/ إسماعيل حقي: وليس الفلاح إلا في العلم والعمل، وترك الدنيا والكسل.

(١) ببعض تصرف وتلخيص المفردات صـ ٣٢٥ وما بعدها .

(٢) الوجوه والنظائر صـ ٣٢٦ وما بعدها .

(٣) أي: وضع لفظ (الظالمين) دون لفظ (الكافرين).

(٤) روح المعاني ٣١/٨.

حكى عن بعضهم أنه دخل عليه بعض الفقراء ولم يجد في بيته شيئا من المتاع. فقال: أما لكم شئ؟ قال: بلى. لنا داران أحدهما دار أمن والأخرى دار خوف، فما يكون لنا من الأموال ندخره في دار الأمن ــ يعني نقدمه للآخرة ــ فقال له: إنه لابد لهذا المول من متاع. فقال: إن صاحب المول لا يدعنا فيه.

وذلك أن الدنيا عارية، ولابد للمعير أن يرجع في عاريته، فعاقبة الدار إنما هي للأحيار الأبرار الذين عملوا لله في ليلهم ونهارهم، ولم ينقطعوا عن التوجه إليه حال سكونهم وقرارهم. اهـ [١]

وآية يوسف يختمها الله تعالى بقوله (إنه لا يفلح الظالمون) وهذه الجملة الجليلة تعليل بعد تعليل لامتناع يوسف عليه السلام عن تحقيق رغبة امرأة العزيز.

قال العلامة الألوسي :

ومعنى (أفلح) دخل في الفلاح كأصبح وأخواته، ولعل المراد به هنا: الفلاح الأخروي.

وبالظالمين: كل من ظلم كائنا من كان، فيدخل في ذلك: المجاوزون للإحسان بالإساءة، والعصاة لأمر الله دخولا أوليا، وقيل: الزناة، لأنهم ظالمون لأنفسهم، وللمزني بأهله، وقيل: الخائنون، لأنهم ظالمون لأنفسهم أيضا ولمن خانوه [٢]

وآية القصص. وردت في سياق الحديث عن إرسال نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه، وطلبه من الله أن يشد عضده بأخيه، وإجابة مطلبه، وذهاب موسى وأخيه إليهم (وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يريد نفسه عليه السلام، وإنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة كما أفاده الشوكاني [٣]

نعم. ربي سبحانه أعلم بمن تكون له العاقبة المحمودة في الدنيا، وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأن الدنيا قنطرة إلى الآخرة، والدنيا مزرعة للآخرة.

(إنه لا يفلح الظالمون)أي:لا يفوزون بمطلوب،ولا ينجون من مرهوب.

وحاصل كلام الكليم عليه السلام :

ربي جل شأنه أعلم منكم بحال من أهله للفلاح الأعظم حيث جعله نبيا، وبعثه بالهدى، ووعده حسن العقبى، ولو

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٥٠٩/١.

(٢) روح المعاني ٢١٣/١٢.

(٣) فتح القدير ٢٤٣/٤.

كان ـــ كما تزعمون ـــ ساحر مجنون كذابا لما أهله لذلك، لأنه عليم حكيم لا يرسل الكاذبين، ولا ينبئ الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون.

إي وربي إن الجملة القرآنية أشبه بالقرار الإلهي الحاسم الجازم الذي لا يرد ولا ينقض (إنه لا يفلح الظالمون) إن من بيده الإفلاح أو من يحقق الفلاح هو الذي حكم هذا الحكم المؤكد وهو نفي للفلاح مطلقا لا في جانب دون جانب. بل في كل جوانب الحياة بل في الآخرة أيضا ما دام المرء قد وصف بهذا الوصف القبيح وصار بمثابة العلم عليه.

ثانيا : المجرمون :

ولفظ المجرم في استعمال القرآن يراد به المشرك وهو الأكثر [1]

وقد يأتي بمعنى: القول في القدر [2]

وقد يأتي بمعنى: اللواط [3]

وقد يأتي بمعنى: الإثم كقوله تعالى ﴿وعلى إجرامي ...﴾ [4]

وعلى كل حال يمكن التقاء كل هذه المعاني للإجرام في معنى الكفر والشرك كما لا يخفى، وعليه يكون الوصف بهذه الصفة القبيحة المراد بها الكفر بالله ـــ في الأعم الأغلب ـــ أيا كان لون هذا الكفر، وهؤلاء جميعهم لا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [5]

إن سياق الآية الكريمة في الحديث عن الكافرين بالله، المكذبين بآياته، المفترين عليه جل شأنه، وهؤلاء لا

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحي) طه ٧٤ وقوله (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ...) المعارج ١١.

وعلى كل حال ففي القرآن قرابة الخمسين موضعا وصف الله فيها الكفار بوصف المجرمين.

(٢) ومن ذلك قوله تعالى (إن المجرمين في ضلال وسعر) القمر ٤٧ قال محمد بن كعب المجرمون ها هنا القدرية، وقال أبو هريرة: جاء مشركو العرب فخاصموا النبي صلى الله عليه وسلم في القدر. فنزلت الآية. انظر أسباب النزول للواحدي صـ ٤٦٣ ، وفيه روايات عديدة تفيد أن الآية فيمن يتكلمون في القدر.

(٣) كقوله تعالى: (فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) سورة الأعراف ٨٣ ـــ ٨٤

(٤) سورة هود من الآية ٣٥.

(٥) سورة يونس الآية ١٧

يفلحون أبداً لا كليا ولا جزئيا، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال الألوسي: والمراد: جنس المجرمين، فيندرج فيه المفتري والمكذب اندراجا أوليا [1]

ثالثا: **الساحرون** :

السحر: يقال على معان: الأول: خداع وتخيلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الأبصار عما يفعله، خفة يد، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع، وعلى ذلك قوله تعالى ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ [2] وقوله: ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ [3]، وبهذا النظر سموا موسى عليه السلام ساحراً.

والثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه، وعلى ذلك قوله ﴿ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [4]

والثالث: ما يذهب إليه الأغمام [5] وهو: اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حماراً،

---

(١) روح المعاني ١١/٨٨.

(٢) سورة الأعراف من الآية ١١٦.

(٣) سورة طه من الآية ٦٦.

(٤) سورة البقرة من الآية ١٠٢.

(٥) قال في اللسان: الغمة : المجمعة، ورجل أغم وغمي لا يفصح شيئا، وامرأة غماء، وقوم غم وأغمام ـــ اللسان مادة : غمم ٥/ ٣٢١٣.

ولا حقيقة لذلك عند المحصلين حسبما أفاده الراغب [6]

قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ [7]

وقال سبحانه: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [8]

في آية يونس: يقول الكليم عليه السلام لقومه ـــ على سبيل الاستفهام الإنكاري التوبيخي ـــ (أتقولون للحق) الذي هو أبعد شيء عن السحر (لما جاءكم) من قبل الله تعالى على يدي: إنه سحر. (أسحر هذا) استفهام إنكاري لتكذيب قولهم، وفضح جهلهم، ثم أكد عليه السلام الإنكار السابق، وما فيه من التوبيخ والتجهيل فقال(ولا يفلح الساحرون) أي: والحال أنه لا يفلح فاعل السحر، فلا يفوز بمطلوب، ولا ينجو من مرهوب.

إن موسى عليه السلام لما نفى عن آيات الله أن تكون سحراً، ارتقى فأبان لهم فساد السحر، وسوء عاقبة فاعليه

---

(٦) المفردات صـ ٣٣١.

(٧) سورة يونس الآية ٧٧.

(٨) سورة طه الآية ٦٩.

تحقيراً لهم، وفي ذلك نفي لما وصفوه به بأبلغ وجه مع نهاية الذم لهم، إذ لو كان ساحراً — كما زعموا — لما شنع حال الساحرين فإن صاحب الصناعة لا يحقر صناعته.

يقول القاضي أبو السعود: (أسحر هذا) إنكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحراً، وتكذيب لقولهم، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل، أي: أسحر هذا الذي أمره واضح مكشوف، وشأنه مشاهد معروف، بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة، وتقديم الخبر للإيذان بأنه مُنْصَبُّ الإنكار، ولما استلزم كونه سحراً كون من أتى به ساحراً أكد الإنكار السابق، وما فيه من التوبيخ والتجهيل قوله عز وجل (ولا يفلح الساحرون) وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين، والرابط هو الواو بلا ضمير.. أي: أتقولون للحق إنه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أي: لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه.اهـ ملخصا [1]

وفي آية طه: يقرر الله تعالى شأنه هذا الحكم (ولا يفلح الساحر حيث أتى).

يقول ابن عباس: لا يسعد حيث كان. وقيل لا يفوز، وروى جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أخذتم الساحر فاقتلوه، ثم قرأ: (ولا يفلح الساحر حيث أتى) قال: لا يأمن حيث وجد" [2]

إن الساحر لا ينجح حيث كان، لأن صنعته تنكشف بالتأمل وثبات النفس في عدم التأثر بها، فأى ساحر لا فلاح له ولا نجاح لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال الخطيب: فإن قيل: لم وحد الساحر ولم يجمع ؟

أجيب بأن القصد من هذا الكلام معنى الجنسية، لا معنى العدد، فلو جمع خيل أن المقصود هو العدد.

وقوله (حيث أتى) أي: كيفما سار.

وقال ابن عباس: لا يسعد حيث كان، وقيل: معناه: حيث احتال، فإنه إنما يفعل ما لا حقيقة له . اهـ [3]

وتعليق الحكم بوصف الساحر يقتضي أن نفي الفلاح عن الساحر في

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٦٦/٣.

(٢) انظر زاد المسير ٣٠٦/٥ والحديث ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله البجلي، وقال: وقد روى أصله الترمذي موقوفا ومرفوعا. تفسير ابن كثير ١٥٨/٣.

(٣) السراج المنير ٥٢٢/٢.

أمور السحر لا في تجارة أو في غيرها وهذا تأكيد للعموم المستفاد من وقوع النكرة في سياق النفي لأن عموم الأسباب يستلزم عموم الأمكنة التي تقع فيها.

هذا وللشيخ/ إسماعيل حقي كلام طيب في تحديد معنى السحر، وحقيقته، وحكم الساحر إن أخذ قبل أن يتوب، والأقوال في ذلك فليرجع إليه من أراد [1]

رابعا: **الكافرون :**

قال تعالى ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ سورة المؤمنون الآية ١١٧.

وقال سبحانه: ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ سورة القصص الآية ٨٢.

في آية المؤمنون: يتوعد الله عز وجل من أشرك به غيره، وعبد معه سواه بلا برهان واضح، ولا دليل قاطع، يتوعده الله تعالى بأنه سيحاسبه حسابا يليق به، ثم أخبر الحق تعالى بأنه (لا يفلح الكافرون)

والمعنى إن الحال والشأن أنه لا يفلح الكافرون مطلقا أي فلاح، والمهدد به فلاح الآخرة حتى لا يقال: إنهم يحققون فلاحا في الدنيا، فالفلاح الدنيوي وهو الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة هو والعدم سواء لأن عاقبته الخيبة والخسران، والذل والهوان بين أطباق النيران، وصدق الله ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [2]

فأين الثرى من الثريا !!!.

قال الطبري: ومن يدع مع المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له معبوداً آخر لا حجة له بما يقول ولا بينة، فإنما حساب عمله السئ عند ربه، وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه، فإنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم [3]

وفي آية القصص: يقول ابن كثير ما ملخصه :

وأصبح الذين تمنوا مكان قارون بالأمس حين رأوه في زينته فقالوا: يا ليت

---

(١) مختصر روح البيان ٤٣٦/٢.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٥.

(٣) تفسير الطبري ٦٤/١٨.

لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم، أصبحوا ــ (لما خسف الله به وبداره الأرض) ــ يقولون: (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) [١]

أي: ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، ولولا لطف الله بنا، وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف بقارون، لأننا وددنا أن نكون مثله (ويكأنه لا يفلح الكافرون) يعنون أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة " اهـ بتصرف وتلخيص [٢]

خامسا : الذين يفترون على الله الكذب :

قال سبحانه: ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ [٣]

وقال عز شأنه: ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [٤]

ابن كثير: أمر وضعي اصطلاحي والمرجع إلى اللفظ العربي اهـ ملخصا .

انظر تفسير القاسمي ٥٦٠/٧ ، ابن كثير ٤٠١/٣، القرطبي ٣١٨/١٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠١/٣.

(٣) سورة يونس الآية ٦٩.

(٤) سورة النحل الآية ١١٦.

(١) (ويكأن) فيها مذاهب : ١ــ (وي) كلمة برأسها وهي اسم فعل معناه: أعجب أي أنا، والكاف للتعليل والمعنى : أعجب لأن الله يبسط الرزق .. الخ

٢ــ أنه مركب من (وي) للتعجب، (كأن) للتشبيه، والمعنى: ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقا أمر قارون.

٣ــ (كأن) للتشبيه إلا أنه ذهب منها معناها، وصارت للخبر واليقين.

٤ــ (وي) للتندم، وكأن للتعجب ، والمعنى: ندموا متعجبين في أن الله يبسط الرزق ...

٥ــ ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى: ويلك مخفف بحذف اللام، والعامل في (أن) أعلم المقدر.

٦ــ (ويك) كلمة برأسها والكاف حرف خطاب، ويقرب هذا مما قبله.

٧ــ (ويكأن) كلها كلمة مستقلة ومعناها: ألم تر قال الشيخ العلامة القاسمي: وما يستفاد من حواشي القاضي والسمين، وعندي أنها مركبة من (وي) للتعجب، و (كأن) التي للتحقيق، وهو أحد معانيها المعروفة، والوقف على (وي) ولا يشكل على ذلك كتابتها في المصاحف متصلة لأن الكتابة كما قال

والمعنى أقل يا سيد الخلق لهؤلاء الكافرين مبينا لهم سوء عقبتهم. ووخامة عاقبتهم (إن الذين يفترون على الله الكذب) في أي حكم، وفي أي شئ (لا يفلحون) إن المفترين على الله الكذب في أي زمان وفي أي مكان، وفي أي مجال لا يفلحون أبداً، ولا سيما في الآخرة.

هل يسوغ في عقل عاقل أن ينسب أحد لله الولد ثم يطمع في الفلاح ؟ !.

وهل يسوغ في عقل عاقل أن يدعي أن الأصنام شفعاء لله ثم يطمع في الفلاح؟!

وكيف يجوز لمن لديه مسكة من عقل أن يتعمد الكذب على الله في أي حكم من الأحكام. ويقطع به بلا دليل ولا برهان ثم يطمع في الفلاح ؟!!

إن حكم الله صدر، ولا يقدر أحد كائنا ما كان على رده ومنعه، أو تبديله وتغييره، وقد أكده الله تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون).

والتعبير بالمضارع (يفلحون) يدل على الاستمرار ولا غرو ما داموا (يفترون) ولا يتوبون وإن من شأن الكاذب على الله ألا يفلح.

وقدمت كلمة (على الله) على كلمة (الكذب) لبيـ ـ شناعة الافتراء.

فإن قال قائل إنا نرى هؤلاء المفترين الكاذبين ينالون متعا يفوزون بها فكيف نوفق بين ذلك وبين حكم الله (لا يفلحون) ؟

فإنا نقول: قد بين الله تعالى أن ذلك متاع الدنيا، وأن أمدها قصير قال سبحانه بعد الآية السابقة ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [١]

وفي آية النحل: يبين الله تعالى فيها كذلك أن الذين يفترون على الله الكذب في أي حكم وفي أي أمر بلا حجة بينة، ولا دليل ظاهر، بل اتباعا للهوى وإرضاء للنفس، وتزلفا إلى سلطان أو حاكم، أو تلبيسا وتدليساً،أو تسولا إلى غرض من أغراض الفانية الخ الخ الخ (لا يفلحون) لا يفوزون بمطلوب ولا يأمنون من مرهوب.

وأنى يكون لهم الفلاح وهم متصفون بأبشع وأقبح أنواع الكذب، وهو الكذب على الله تعالى وكما يقول الشيخ/ أبو زهرة ــ رحمه الله ــ في تفسيره :

من تصل حاله إلى الكذب على الله لا يمكن أن يفوز في أمر من الأمور، وقد ذكر الموصول للدلالة على أن الصلة هي

---

(١) سورة يونس الآية ٧٠.

السبب في عدم الفوز، وأكد سبحانه عدم الفوز بالجملة الاسمية،وإن المؤكدة اهـ[١]

قال ابن العربي: ومعنى الآية: لا تصفوا الأعيان بأنها حلال أو حرام، من قبل أنفسكم، إنما المحرم والمحلل هو الله سبحانه، قال ابن وهب: قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقال لهم هذا حلال، وهذا حرام، ولكن يقول: أنا أكره هذا، ولم أكن لأصنع هذا، فكان الناس يطيعون ذلك، ويرضونه، ومعنى هذا أن التحليل والتحريم إنما هو لله كما تقدم بيانه، فليس لأحد أن يصرح بهذا في عين من الأعيان إلا أن يكون الباري تعالى يخبر بذلك عنه، وما يؤدي إليه الاجتهاد أنه حرام يقول فيه: إني أكره كذا، وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى. اهـ[٢]

القارئ الكريم. وبعدما وقفت على أهم صفات المقضي عليهم بعدم الفلاح ترى أن هؤلاء هم أهل الضلال والكفر، ولكن القرآن الكريم وصفهم بهاتيك الصفات ليبين قبح تلك الصفات في ذاتها، وأنها بانفراد كل واحدة منها لكافية في تحقيق الخسران لصاحبها المتصف بها.

ثم بين القرآن أن الكفار مع اتصافهم بالكفر قد اتصفوا مع ذلك بجملة من القبائح والمنكرات مما يكشف لنا مدى توغلهم في الكفر، وتأصل الكفر في نفوسهم، واتصافهم مع ذلك بالظلم والإجرام والسحر، وافتراء الكذب على الله تعالى.

وبهذا تعلم أن نفى الفلاح عنهم إنما كان بسبب كسبهم وسوء فعلهم، وليس تجنيا من الله عليهم، و ليبين لنا القرآن أن المقدمات الصحيحة لابد أن تأتي بنتائج صحيحة، وهذا مقتضى العقل والمنطق، والمقدمات الفاسدة لابد أن تأتي بنتائج فاسدة وصدق الله ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ {٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ {٨} ﴾[٣]

تتمة :

ومن تتمة الحديث عن المحكوم عليهم في القرآن الكريم بعدم الفلاح، أن نذكر أصناف المصرح بهم في القرآن بأنهم أهل الخسران، وسأشير في عجالة إلى الآيات

---

(١) زهرة التفاسير ٤٢٩٢/٨.

(٢) أحكام القرآن ١١٨٣/٣ ، ونحوه في القرطبي ١٩٦/١٠، وحكاه الثعالبي عن ابن العربي في تفسيره انظر تفسير الثعالبي ٤٤٥/٣.

(٣) سورة الزلزلة ٧ ، ٨.

التي ذكرتهم، وأهم صفاتهم، لتكتمل الصورة عن الفلاح والمفلحين، فبضدها تتميز الأشياء والخسران كما في المفردات.

انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل، والإيمان والثواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين. اهـ[١]

وقد ذكر الإمام أبو عبد الله الدامغاني في كتابه: أن الخاسرين تأتي في القرآن على خمسة أوجه، فتأتي بمعنى(العجز)، وتأتي بمعنى (الغبن)، وتأتي بمعنى (الضلال) وتأتي بمعنى (النقص)، وتأتي بمعنى(العقوبة)،ثم مثل لكل بأمثلة[٢]

وفي اللسان: الخسر والخسران: النقص والضلال والهلاك، والغبن، والعقوبة بالذنب. اهـ ملخصا[٣]

وكذا قال ابن فارس في معجمه :

الخاء والسين والراء . أصل واحد يدل على النقص[٤]

ومادة الكلمة وردت في القرآن خمسا وستين مرة ــ تقريبا ــ كلها تبين الخسران الأعظم، وهو الخسران يوم القيامة بسبب الكفر وسوء العمل، إلا في تسعة مواضع فقط؛ وردت الكلمة فيها بمعنى النقص في ثلاث منها[٥]، ووردت بمعنى الضلال والخيبة في الستة الباقية[٦]

---

(١) المفردات صـ ١٤٨.

(٢) الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز صـ ٢٠٢.

(٣) اللسان

(٤) معجم مقاييس اللغة صـ ١٨٢.

(٥) وهي: (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) الشعراء ١٨١.
(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسوا الميزان) الرحمن ٩.
(وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) المطففين ٣

(٦) وهي: (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) الأعراف ٩٠.
(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون) يوسف ١٤.
(ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون) المؤمنون ٣٤.
(قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف٢٣
(الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) الأعراف ٩٢.
(...وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) هود ٤٧.
(وهي: (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) الأعراف ٩٠.

الخاسرون وأوصافهم :

(١) الكافرون بالله، المرتدون عن الإسلام، المفسدون في الأرض.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ من بَعْدِ ميثاقه وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١)

وقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَـئِكَ يُؤْمِنُونَ به وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢)

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ ديناً فَلَن يُقْبَلَ منْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ منَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣)

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤)

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٥)

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ من قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا من شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (٦)

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {١٩} أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ في الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ منْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ {٢٠} أُولَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ {٢١} لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ {٢٢} ﴾ (٧)

(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون) يوسف ١٤.

(ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون) المؤمنون ٣٤.

(قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف٢٣

(الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) الأعراف ٩٢.

(... وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) هود ٤٧.

(١) سورة البقرة الآية ٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية ١٢١.

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٤) سورة المائدة الآية ٥.

(٥) سورة المائدة الآية ٢١.

(٦) سورة الأعراف الآية ٥٣.

(٧) سورة هود الآيات ١٩ ــ ٢٢.

﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {١٠٨} لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ {١٠٩} ﴾ (١)

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢)

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (٣)

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ من قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ منَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤)

﴿ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٥)

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٦)

﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٧)

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ منَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ من طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ في عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ (٨)

﴿ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٩)

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (١٠)

(٢) طائفة الكفار :

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ ﴾ (١١)

(٣) الآمنون مكر الله :

قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٢)

---

(١) سورة النحل الآيات ١٠٨ ــ ١٠٩.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٢.

(٣) سورة الزمر الآية ١٥.

(٤) سورة الزمر الآية ٦٥.

(٥) سورة غافر الآية ٧٨.

(٦) سورة غافر الآية ٨٥.

(٧) سورة فصلت الآية ٢٥.

(٨) سورة الشورى الآية ٤٥.

(٩) سورة الجاثية الآية ٢٧.

(١٠) سورة الأحقاف الآية ١٨.

(١١) سورة آل عمران الآية ١٤٩.

(١٢) سورة الأعراف الآية ٩٩.

(٤) من حرم مغفرة الله ورحمته:

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1]

﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2]

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[3]

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[4]

(٥) المنافقون:

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ﴾[5]

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {٦٧} وَعَدَ اللّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ {٦٨} كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٦٩}﴾[6]

(٦) أولياء الشيطان وحزبه:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً﴾[7]

وقال سبحانه: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[8]

(١) سورة البقرة الآية ٦٤.
(٢) سورة الأعراف الآية ٢٣.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٤٩.
(٤) سورة هود الآية ٤٧.
(٥) سورة المائدة الآية ٥٣.
(٦) سورة التوبة الآيات ٦٧ ــ ٦٩.
(٧) سورة النساء الآية ١١٩.
(٨) سورة المجادلة الآية ١٩.

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.. ﴾[7]

(١٠) الخبيث وأهله:

قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[8]

(١١) من يعبد الله على حرف:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾[9]

(١٢) سوء الظن بالله:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ {٢٢}

(٧) المكذبون بلقاء الله وآياته:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾[1]

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[2]

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3]

(٨) القاتلون أولادهم أو غيرهم بغير حق والمحرمون ما أحل الله:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[4]

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[5]

(٩) من خفت موازينه:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[6]

(١) سورة الأنعام الآية ٣١.
(٢) سورة يونس الآية ٤٥.
(٣) سورة يونس الآية ٩٥.
(٤) سورة الأنعام الآية ١٤٠.
(٥) سورة المائدة الآية ٣٠.
(٦) سورة الأعراف الآية ٩.
(٧) سورة المؤمنون الآية ١٠٣.
(٨) سورة الأنفال الآية ٣٧.
(٩) سورة الحج الآية ١١.

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١)

(١٣) المنشغل بماله وولده عن ذكر ربه :

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢)

الأخسرون :

عبر القرآن الكريم بلفظ (الأخسر) وصفا لجماعات من الكفار ليبين أنهم لا أحد أبين أو أكثر خسرانا منهم، فأفعل للزيادة إما في الكم وإما في الكيف.

قال تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ (٣)

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا {١٠٣} الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا {١٠٤}﴾ (٤)

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ {٧٠}﴾ (٥)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ {٤} أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ {٥}﴾ (٦)

إن الأخسرين هم الكافرون المفترون على الله الكذب، الصادون عن سبيل الله، المحرفون رسالات الله، الساعون في الأرض فساداً الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا، المحاربون أنبياء الله، المنكرون للآخرة.

يقول العلامة الشيخ/ الطاهر ابن عاشور رحمه الله في تفسير آية هود :

إن ما جمع لهم من الزج للعقوبة، ومن افتضاح أمرهم، ومن إعراضهم عن سماع النذر، وعن النظر في دلائل الوحدانية يوجب اليقين بأنهم الأخسرون في الآخرة.

وإنما كانوا أخسرين، أي: شديدي الخسارة، لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب

(١) سورة فصلت الآيات ٢٢ــ ٢٣.
(٢) سورة المنافقون الآية ٩.
(٣) سورة هود الآية ٢٢.
(٤) سورة الكهف الآية ١٠٣.
(٥) سورة الأنبياء الآية ٧٠.
(٦) سورة النمل الآيات ٤ ــ ٥.

الشقاء والعذاب ما افترق في الأمم الضالة، ولأنهم شقوا من حيث يحسبونه سعادة، (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) فكانوا أخسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة . اهـ (١)

* * *

المطلب الخامس
الفائزون وصفاتهم
حسن الختام :

يجمل بنا أن نختم بحثنا هذا عن الفلاح والمفلحين في ضوء القرآن الكريم بكلمة موجزة عن الفوز والفائزين وأهم صفاتهم أو مؤهلاتهم التي أوصلتهم إلى تلك المنزلة العالية وقد علمنا في أول البحث أن الفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

فنقول: استعمل القرآن الفوز في النجاة من النار، ودخول الجنات وحصول الرضوان.

قال الراغب: الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة (٢)

وقد وردت مادة الفوز في القرآن تسعا وعشرين مرة.

ووصف في القرآن بالعظم ١٦ ست عشرة مرة (الفوز العظيم).

ووصف بالمبين مرتان (الفوز المبين).

ووصف بالكبير مرة واحدة (الفوز الكبير) (٣)

(١) التحرير والتنوير ٣٨/١٢

(٢) المفردات صـ ٤٠١.
(٣) وردت مادة الكلمة ثلاث مرات مراداً بها غير ما نحن فيه فقد ورد منفيا عن المنافقين ومن كان

على شاكلتهم، الذين يحبون أن يحمدهم الناس بما لم يصدر منهم: قال تعالى (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم) آل عمران ١٨٨.

أخرج البخاري عن سعيد الخدري: "إن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت (لا تحسبن الذين يفرحون ..) الآية . أخرجه البخاري في كتاب التفسير ــ باب ــ لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا.) الآية حديث (٤٥٦٧) والحديث الذي بعده (٤٥٦٨) عن ابن عباس قال: ما لكم ولهذه الآية إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ...) وتلا ابن عباس (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ...) قال: سألهم = = النبي صلى الله عليه وسلم عن شئ فكتموه وأخبروه بغيره فخرجوا وفرحوا أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه"

ويمكن لنا باختصار أن نحدد: من هم الفائزون، وما هي أهم صفاتهم التي أهلتهم للفوز : ــ

(١) من زحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١)

وقال عز شأنه: ﴿ قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {١٥} مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ {١٦}﴾ (٢)

وقال سبحانه: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ

وورد في حق المنافقين تمنيهم أن يكونوا مع المؤمنين ليظفروا معهم بالغنائم (ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما) النساء ٧٣.

يقول الواحدي : ولئن أصابكم فتح وغنيمة ليقولن هذا المنافق قول نادم حاسد (يا ليتني كنت معهم) لأسعد بمثل ما سعدوا به من الغنيمة . الوجيز ٢٧٤/١.

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥.

(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٥ ــ ١٦.

الْجَحِيمِ {٥٦} فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {٥٧}﴾ (١)

وقال سبحانه: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠}﴾ (٢)

(٢) المؤمنون الصادقون الطائعون لله ورسوله :

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٣}﴾ (٣)

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١١٩}﴾ (٤)

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٥)

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٦)

﴿ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (٧)

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٨)

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي من تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٩)

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٠)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي من تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (١١)

---

(١) سورة الدخان الآيتان ٥٦ ــ ٥٧.

(٢) سورة الحشر الآية ٢٠.

(٣) سورة النساء الآية ١٣.

(٤) سورة المائدة الآية ١١٩.

(٥) سورة التوبة الآية ٧٢.

(٦) سورة النور الآية ٥٢.

(٧) سورة الأحزاب الآية ٧١.

(٨) سورة الجاثية الآية ٣٠.

(٩) سورة الحديد الآية ١٢.

(١٠) سورة التغابن الآية ٩.

(١١) سورة البروج الآية ١١.

وقال تعالى: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (١)

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢)

﴿إن للمتقين مفازاً﴾ (٣)

(٣) المجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٤)

﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {٨٨} أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {٨٩}﴾ (٥)

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦)

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧)

(٤) السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعون لهم بإحسان:

قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٨)

(٥) أولياء الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {٦٢} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {٦٣} لَهُمُ

(١) سورة الفتح الآية ٥.
(٢) سورة الزمر الآية ٦١.
(٣) سورة النبأ الآية ٣١.
(٤) سورة التوبة الآية ٢٠.
(٥) سورة التوبة الآية ٨٨ ــ ٨٩.
(٦) سورة التوبة الآية ١١١.
(٧) سورة الصف الآية ١٢.
(٨) سورة التوبة الآية ١٠٠.

الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {٦٤}﴾ (١)

(٦) وقاية الله الإنسان من السيئات:

قال تعالى: ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢)

(٧) المؤمن الصابر على محنة الدهر:

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {١٠٩} فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ {١١٠} إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ {١١١} ﴾ (٣).

* * *

الخاتمة

وبعد هذه الجولة الإيمانية مع آيات القرآن الكريم رأينا أن كتاب الله تعالى يرسم السبيل الأمثل والمنهج الأقوم للإنسان المسلم ليرتقي به إلى مراتب الكمال، ليكون من المفلحين في الدارين.

فها هي معالم الطريق واضحة لمن أراد الاستقامة والفوز والفلاح.

إذ لا فلاح ولا فوز في الحقيقة إلا في الإيمان بالله تعالى وبالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والسير على منهجه، واتباع شرعه، وامتثال جميع أمره، واجتناب نهيه، والتزام طاعته، وعدم مجاوزة حدوده، واتقاء الشبهات، ومحاربة الشهوات، وترك المنكرات.

إن المتقين المحسنين، الداعين إلى الخيرات، المكثرين من الطاعات، الصالحين المصلحين، ذوي الأخلاق الحسنة، المراعين حقوق الغير عليهم، هم المفلحون في الدارين، الفائزون في الحياتين، فمن أراد الفلاح تحقق بهذه الصفات، وإن من حقق الله لهم الفلاح في القرآن قد قاموا بالمطلوب منهم على أتم وجه وأكمله.

وأما الظالمون المجرمون الكافرون [illegible] فلا فوز لهم ولا فلاح، ولا

(١) سورة يونس الآيات ٦٢ ــ ٦٣.
(٢) سورة غافر الآية ٩.
(٣) سورة المؤمنون الآيات ١٠٩ ــ ١١١.

صلاح لهم ولا نجاح بل أهل الضلال الذين لهم سوء المآل.

وكذلك كل من كان على شاكلتهم ونحا نحوهم، والآمنون من مكر الله، والمحرومون مغفرة الله، وأولياء ا لشيطان وحزبه، والمحرمون ما أحل الله، والمحلون ما حرم الله، ومن خفت موازين أعمالهم، والمكذبون بلقاء ربهم، وكتابه، والمنشغلون عن ربهم بأموالهم وأولادهم هؤلاء وأولئك هم الخاسرون.

إن القرآن في حديثه عن الفلاح والمفلحين قد نبه إلى صفات حميدة، وخصال مجيدة، يجب التحلي بها، وكذا لفت الأنظار إلى جملة من الخصال الذميمة والرذائل البغيضة التي يجب التخلي عنها والتنزه من أدرانها ليؤكد للكل أن الفلاح ليس مجرد ادعاء يدعيه صاحبه، أو أمنية يتمناها المتمني، وإنما سبيل حصوله هو الإيمان الصادق بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتطهير للنفس البشرية من أرجاس الآثام، وتكميلها وتجميلها بلباس التقوى، والتحلي بجميل الخصال، والإكثار من صالح الأعمال، حينئذ يكون المسلم من المفلحين في الدارين، الفائزين في الحياتين.

الله تعالى أسأل أن يجعلني والقارئ الكريم من المفلحين الفائزين في الدارين إنه سبحانه ولي ذلك ومولاه .هو حسبي ونعم الوكيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

أهم مراجع البحث

ـ القرآن الكريم

ـ الإتقان في علوم القرآن للجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ط/٤ ١٩٧٨ مصطفى الحلبي

ـ أحكام القرآن للكيا الهراس ط الأولى ٢٠٠٤م ـ دار الجيل.

ـ أحكام القرآن لابن العربي تحقيق أ/علي محمد البجاوي ط/١٩٨٧م ـ دار الجيل بيروت.

ـ إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ط/ الحلبي.

ـ الأدب المفرد للإمام البخاري ط/٢/١٩٨٥ م ـ عالم الكتب.

ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للقاضي أبي السعود العمادي ط/١/١٩٩٩م دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ط ٤/١٩٨٤م ـ دار التنوير العربي ـ ...ت.

ـ أسباب النزول للواحدي بتحقيق أ. السيد أحمد صقر ط /١٩٨٧/٣م مؤسسة علوم القرآن.

ـ أضواء البيان للشيخ العلامة الشنيقيطي ط/١٩٨٥م دار الفكر ـ بيروت.

ـ إعراب القرآن الكريم للأستاذ محي الدين الدويش ط/٢٠٠٢/٧م ـ دار ابن كثير ـ دمشق.

ـ البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ط/١٩٨٣/٢م دار الفكر ـ بيروت.

ـ البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ـ تحقيق أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم ط/ مكتبة التراث ـ القاهرة.

ـ تحفة المريد على جوهرة التوحيد للعلامة/ إبراهيم البيجوري ط/١٩٧٢م ـ الشركة المصرية .

ـ التحرير والتنوير للشيخ الفاضل محمد الطاهر بن عاشور ط/ دار سحنون ـ تونس.

ـ الجامع لإحكام القرآن للإمام القرطبي ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ط/١/١٩٩٤م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان.

ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشيخ الشنقيطي ـ مكتبة ابن تيمية

ـ السراج المنير في معرفة كلام ربنا الخبير (تفسير الخطيب) للخطيب الشربيني ط/ دار الكتاب العلمية ـ الأولى ـ بيروت ١٩٩١م.

ـ تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) لشيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري ط/ دار الحديث القاهرة.

ـ تفسير البغوي على هامش تفسير الخازن ط/ الحلبي.

ـ تفسير القاضي البيضاوي ـ ط/كتبة النشرتي ١٤١٨هـ.

ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين ابن كثير ط/ عيسى الحلبي.

ـ تفسير تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للبروسوي ـ اختصار الشيخ الصابوني ط/ الأولى ١٩٨٨م نشر دار الصابوني.

ـ تفسير الكشاف لجار الله الزمخشري ـ ط دار المعرفة بيروت.

ـ تفسير المنار للأستاذ الشيخ/ رشيد رضا ط/ ١٣٦٧/٣هـ دار المنار.

ـ تفسير المراغي للأستاذ/ أحمد مصطفى ط الأولى ١٩٩٨م دار الكتب العلمية بيروت.

ـ التفسير الوسيط للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي.

ـ تفسير في ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب ط/١٩٨٦/١٢م دار الشروق.

ـ تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للعلامة شهاب الدين الألوسي ط/ دار التراث.

ـ تفسير فتح القدير للشوكاني ط/الأولى /١٩٩٣م نشر دار الحديث ـ القاهرة.

ـ التفسير القيم لابن قيم الجوزية ط/ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ تفسير الخازن للشيخ علاء الدين الشهير بالخازن ط/١٩٥٥/٢م ـ مصطفى الحلبي.

ـ تفسير زاد المسير لابن الجوزي ط/١٩٨٤/٣م ط/ المكتب الإسلامي

ـ تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) للقاضي عبد الحق بن عطية ط١/٢٠٠١م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

ـ تفسير القاسمي (محاسن التأويل) للعلامة الشيخ/ جمال الدين القاسمي ط/٢٠٠٣م دار الحديث ـ القاهرة.

ـ تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين الرازي ط/ دار الفكر ـ بيروت ـ الثالثة ١٩٨٥م.

ـ سنن الترمذي للإمام الترمذي . تحقيق أ/ أحمد محمد شاكر ـ ط/ دار الحديث القاهرة.

ـ صحيح البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني ط/١٩٧٨م مكتبة القاهرة.

ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ مكتبة الغزالي ـ دمشق ـ مؤسسة مناهل العرفان.

ـ العقيدة الطحاوية ط/٢٠٠٥م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت تحقيق/أحمد بن علي.

ـ غريب القرآن لابن قتيبة ط/١٩٧٨م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ غريب القرآن للسجستاني ط/دار التراث بالقاهرة.

ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ـ على هامش الطبري ط/دار الحديث ـ القاهرة

ـ لسان العرب لابن منظور ط/دار المعارف المصرية.

ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس ـ تحقي أ/ عبد السلام هارون ط/ دار الجيل ـ لبنان .

ـ المفردات للراغب الأصفهاني ط/ دار الفكر تحقيق/ نديم مرعشلي.

ـ المقاصد الحسنة للسخاوي تحقيق/محمد عثمان الخشت ط١/١٩٨٥م دار الكتاب العربي.

ـ الوجوه والنظائر للدامغاني ط١/٢٠٠٢م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان.

* * *

الفهـــرس

الموضوع		الصفحة
ـ المقدمة		٢٣١٣
ـ التمهيد		٢٣١٥
ـ المطلب الأول (ورود مادة الفلاح في القرآن الكريم)		٢٣١٩
ـ المطلب الثاني (من حقق الله لهم الفلاح)		٢٣٢٣
ـ المطلب الثالث (المرجو لهم الفلاح)		٢٣٥٤
ـ المطلب الرابع (المقضي عليهم بعدم الفلاح)		٢٣٧٢
ـ تتمة عن الخسران والخاسرين.		٢٣٨٢
ـ المطلب الخامس (الفائزون وصفاتهم)		٢٣٨٩
ـ الخاتمة		٢٣٩٣
ـ المراجع		٢٣٩٤
ـ الفهرس		٢٣٩٧

* * *